صاروخ أرض جو

مجموعة
قصصية

سميرة طباسي

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : صاروخ أرض جو
المؤلف : سميرة طباسي
تصنيف الكتاب : مجموعة قصصية
الغلاف : محمد سالم
إخراج عام : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٠٤٩٥ / ٢٠١٨
الترقيم الدولى : 6 - 773 - 776 - 977 - 978

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

أهديها إلى نفسي، ثم إلى والدي، ثم إلى كل من يقرؤها، أعجبته أو لم تفعل.

شكرًا

المقدمة

أمـر مهـم عزيـزي القـارئ، بعـضٌ مـن القصـص التـي سـتقرؤها في هـذه المجموعـة واقعيـة، سـمعتها ممـن حـولي أو حدثـت لي شـخصيا.

كلي أمـل مـن التمكن مـن إصدار عـدة مجموعـات، وكلي أمل أيضـا أن تحوز عـلى إعجابـك، الهزلية منهـا والجادة.

أرحب بأي انتقاد أو تعليق على إميل

Fspbrh2012@yahoo.com

١- جمع طوابع

في مدرستي، عندما كنت في الصف الثاني من المرحلة الثانوية، كانت تُخصِّص معظم الطالبات وقت الفسحة لتناول الطعام، بينما تخصصه بعضهن لحل واجبات حصص ما بعدها.

أما أنا وصديقاتي الثلاث، فكنا نخصص هذا الوقت للكلام، ويا له من كلام، إنه القصص التي تسمعها كل منا من والدها أو من والدتها أو من أحد إخوتها أو من أي شخص أثناء حضورها مناسبة ما مثلا.

وكثيرا ما كان الوقت لا يكفي لرواية القصة كاملة أو لكل التعليقات عليها، فيظل تفكيري مع الشخصيات طوال الحصص اللاحقة، فلا يبقى عالقا في ذهني مما قالته المعلمات فيها سوى القليل.

كم كنت أرجو أن لا تسألني المعلمات أثناءها أي سؤال؛ إذ كنت أخشى أن أجيب عنه بما حدث في قصة ما؛ وهروبا من

الأمـر وعواقبـه التـي كانت تختلـف مـن معلمة إلى أخـرى، كنت أجلـس في الصـف الأخير.

في فسـحة هـذا اليـوم، اخترنـا مكانًـا هادئًـا كعادتنـا؛ لنتناول وجبـة القصـص التـي كانـت تفـوق في لذتهـا مـا أحضرنـاه مـن طعـام، وفـور جلوسـنا سَـألتُ: مـن لديهـا قصـة اليـوم؟

رفعـت عبلـة يدهـا، وقالـت: عنـدي واحـدة ستدهشـكن جميعًـا.

بـدأ الحـماس عـلى وجوهنـا وفتحنـا أفواهنـا لوضـع الطعـام وثبتنـا أعيننـا عـلى الراويـة، التـي بـدأت بالحديـث: هـذه القصة سـمعتها مـن أخـي نقـلا عـن صديقـه الـذي يعمـل في محـلٍّ لبيع الأثـاث نقـلا عن أحـد العاملـين المسـؤولين عن تركيـب الأثاث للزبائـن، سـمعتها عندمـا كان يحكيها لأمي ولم يشـعرا بوجودي.

صرخنا ثلاثتنا بها: أوقفي العنعنة وابدئي فالوقت يمر.

عبلـة: حـضرت امـرأة إلى محـل الأثـاث واختـارت غرفـة اسـتقبال ودفعـت ثمنهـا، وبعـد ذلـك أعطاهـا مديـر المحـل موعـدا؛ ليذهـب العـمال لتركيـب هـذه الغرفـة في منزلهـا.

في اليـوم المحـدد خـرج أربعـة منهـم لتنفيـذ المهمـة، وعندمـا وصلـوا وجـدوا المنـزل مكونـا مـن أربعـة طوابـق.

رن رئيسهم (نادر) جرس الشقة المنشودة، ففتحت السيدة الباب وقادتهم للغرفة التي تريد وضع الأثاث الجديد فيها، فبدؤوا العمل فورا وبقيت السيدة معهم.

لاحظ أنها لم تُشِح بنظرها عنه، وهذا جعله يتجرأ ويتفحصها بدوره، فوجدها شابة لم تكمل الثلاثين، متوسطة الجمال، ذات تفاصيل جسدية متناسقة وهادئة.

بعد لحظات، دخل طفلان الغرفة ودعياها بأمي، فأخذت تداعبهما.

كان الأكبر لم يتجاوز الرابعة بعد، والأصغر ابن عامين تقريبا، بقيا معها قليلا، وبعد دقائق دخلت الخادمة وأخذتهما.

فور خروجهما عادت نظرات التفحص من جديد، وأحس (نادر) بأن الوقت يمر ببطء وبأن التوتر بدأ يسود بينهما فبدأ يتصبب عرقا وخشي أن يلاحظ باقي العمال ما يحدث.

تنفس الصعداء عند الانتهاء، وتحرك الأربعة خارجين وكان هو آخرهم، فاستوقفته وأعطته مبلغا من المال وقالت له: اقسمه بينك وبين زملائك.

شكرها (نادر)، وغادر بعد أن أخبرها عن اسمه نتيجة سؤالها.

في اليوم التالي، وأثناء عمله جاء زميله وقال له: هناك امرأة على الهاتف، تريد التحدث معك.

بدا الاستغراب على وجهه؛ فهذه أول مرة يأتيه اتصال في هذا المكان.

جاءه صوتها: أنا سيدة الأمس صاحبة غرفة الاستقبال، أتذكرني؟

ـ بالطبع يا سيدتي، هل هناك مشكلة في الغرفة؟

ـ نعم.

ـ ما هي؟

ـ لا أستطيع أن أشرح لك الأمر على الهاتف، عليك الحضور لترى بنفسك.

ـ حسنًا، و.....

قاطعته السيدة: احضر لوحدك بعد ساعتين لو سمحت، هل تستطيع؟

ـ بالتأكيد.

ـ لا تخبر أحدًا عن شيء.

ادَّعى المرض فسمح له المدير بأن يأخذ باقي اليوم أجازة، شكره (نادر) وتوجه إلى منزل السيدة وهو شبه متأكد أن المسألة ليست كما ادَّعت.

كان من الممكن أن يتعرض في منزلها لخطر ما أو لحادث غير متوقع، ولكنه قَبِل تلك المغامرة مدفوعا بفضول شديد وبنظراتها التي لم ينساها بعد.

وصل و طرق الباب ففتحت السيدة، فتفاجأ بمظهرها ولكنه لم ينبس ببنت شفة.

كانت بكامل زينتها، وترتدي ثيابًا جميلةَ ومثيرةً وشفافةً.

بمنتهى البساطة ودون أن تنطق بكلمة واحدة أمسكت بيده وأدخلته غرفة نومها وأغلقت الباب بالمفتاح، ثم قالت له: هذا المبنى مكون من أربع طوابق كما ترى، في كل طابق منه زوجة لزوجي العجوز الذي أتم السبعين من العمر، نحن أربعة أكبرنا في الستين وأنا أصغرهن وآخرهن، ولك أن تتخيل مقدار الحرمان الذي أعانيه، أنت أكبر سنا من أن أشرح لك وأصغر من أن تُقاوَم.

لم يجد (نادر) أي كلام يقوله فبقي صامتا، وبعد لحظات من تبادل النظرات، أجلسته على السرير وجلست بجواره ثم قالت: الطفلان مع الخادمة خارج المنزل ولن يعودا قبل

المساء، وأمامك خياران إما أن تخرج فورا وإما أن تطفئ النار التي أشعلتها بشبابك وبجسمك الفتي.

سألها نادر بمنتهى الحنان والشهوة: ماذا تريدين؟

ـ كل شيء.

رأى (نادر) أمامه حبة من الفاكهة فبدأ يقشرها ويأكلها رويدا رويدا، ثم أدخل أنفه في خصلات شعرها وكم كانت رائحته زكية.

لم يترك شيئا أراده هو أو طلبته هي أو سمعا أو قرآ عنه، أو شاهداه على شاشة ما في يوم من الأيام حتى فعلاه، كان على حرمان سنوات أن يُعَوَّض في ساعات.

تعالت الضحكات فلم يعد يُعرَف صوت من كان أعلى وآهات من كانت أعمق.

وبعد أكثر من ساعتين من الجنون رقصا سويا، ثم عادا من جديد يطفئان الحرائق التي اشتعلت مجددا.

غادر (نادر) إلى منزله بعد ما يقارب الأربع ساعات، وبقي مددا على سريره دون حراك يفكر في كل لحظة قضاها معها، لقد كان ثملا بها بكل معنى الكلمة.

مـا يزال يحس بطعم حبات التوت على شـفتيه، وبطعم العسـل في فمـه، وبملمـس حبـات الرمـان بـين يديـه، وبنعومـة بشرتهـا.

صمتـت عبلـة، فسـألتها نـوال بلهفة: ومـاذا بعـد؟ هل ذهب إليهـا ثانية؟

عبلـة: كلا، لم يرهـا مـرة أخـرى ولم تتصـل هـي بـه ولم تـأتي للمحـل مـرة أخـرى، وبعد أسـبوع تـرك العمل وغـادر إلى مدينة أخرى.

قالـت عبـير: مـن المؤكد أنه خـاف مـن الفضيحـة، أو أنه رأى فيهـا امرأة خائنـة أو عديمـة الأخلاق، ففضـل الاختفاء.

أنـا: لا أعتقـد، ربـما رآهـا مسـكينة وضحيـة لنظريـة جمـع الطوابـع التـي ينتهجهـا الكثـير مـن الرجـال الموسريـن، رآهـا ضحيـة لظروفهـا.

نوال: هل سألها عن سبب زواجها بالعجوز؟

عبلة ببعض الغيظ: لقد كانا مشغولان بما هو أهم.

ضحكنـا جميعـا، ومـع الجـرس عدنـا إلى فصلنـا الـذي لم أكن فيـه سـوى جسـد، كان خيـالي هنـاك، أتخيـل كل شيء كل نظـرة وحركـة وتخيلـت المـرأة ونـادر حتـى غرفـة الاسـتقبال تخيلتهـا، ولاحـت أمامـي أشـجار التـوت والرمـان وكل الفواكـه التـي

أعرفها، وأخذت أتساءل عن حياتها السابقة لنادر واللاحقة بعده وعن ظروفها وعن أهلها وعن كل شيء.

لسوء حظي، حدث ما كنت أخشاه، فبينما أنا في عالم آخر، إذا بيد زميلتي تهزني بعنف وتعيدني إلى الواقع.

فوجئت بالمعلمة تصرخ بي فوقفت وقد ارتبكت كثيرا، فسألتني وهي غاضبة: لقد ناديتكِ أكثر من مرة ولم تجيبي أيتها الشاردة، فيم تفكرين؟

لم أكن لأخبرها بالطبع، فتماسكت ونفيت بقوة وأكدت لها أني مصغية لها تماما، فقالت بتحدٍ: أخبريني إذن عن ماذا كنت أتحدث ؟

أجبتها بإصرار وبثقة: عن العمال والنساء الذين يقومون بجمع الطوابع في غرفة الاستقبال في الطابق الرابع يا أستاذة.

***

٢ـ استثمار

ولـدت بعـد شـقيقين، كان أكبرنـا في تلك الإجازة في التاسـعة مـن عمـره، وكان الفـرق بـين كل واحـد منـا سـنة واحـدة فقط، لدرجـة أني كنـت أعتقـد أننـا متشـابهون جـدا، رغـم أن أحـدا لم يكـن يوافقنـي هـذا الاعتقاد.

أمـي ربـة منـزل عاديـة ومحبـة كل مـا يهمهـا، هو الأشـخاص الموجـودون بـين جـدران منزلها.

أكثـر شيء فينـا يسـعدها هـو هدوؤنـا، الـذي كان شـاذا بـين أبنـاء العائلـة وبين الجـيران، حتى بـدأت أعتقد أن الهدوء مَسـبَّة، أمـا أبي فـكان أكثـر سـعادة منهـا بهذا الهـدوء الـذي يجنبـه الكثير من المشـاكل.

انتهى العام الدراسي، بنجاح حاز على رضا والدينا.

في صبـاح أول يـوم مـن الإجـازة الصيفيـة، قالـت أمـي: لا أحـب اللعـب في الشـارع، ولكـن سأسـمح لكـم بـه بعـض أيام في الأسـبوع، شرط عـدم الابتعـاد عن الشـارع الذي أمـام المنزل.

قلنا برجاء: ليكن اليوم يا أمي.

هـزت أمـي رأسـها بالموافقـة، فقفزنـا من السـعادة، ووعدنا بالطاعـة، ولم يتـم الإفـراج عنـا إلا بعـد أن غادرت الشـمس كبد السـماء؛ خوفـا علينا مـن حرها.

قمنـا ببعـض الألعـاب، وركضنـا هنـا وهنـاك، وفجـأة صاح كبيرنـا أحمـد: انظروا.

نظرنا حيث أشار أحمد، فوجدناه، وقلنا: إنه صغير جدا.

قال وائل: لم يكسوه الريش بعد.

قُلتُ بشفقة وعطف: يا له من عصفور مسكين.

أحمد: سنأخذه.

وائل: أنا من سيأكله.

أنا: أنت وحش صغير، بل سنربيه.

أحمـد: كفـى، سـنبحث عن أمـه وعن عشـه، هذا هـو تصرف الفرسان.

أنا: والفارسات أيضًا.

تراجـع وائـل عـن فكـرة أكل العصفـور وقـال: أنـا أيضـا فـارس، هيـا بنـا.

لم يكن يستطيع الطيران بعد، فقمنا كما تعلمنا من برامج الأطفال، بالبحث عن عشه؛ حتى نعيده إليه، فتفرح أمه وتزقزق وتطير فوق رؤوسنا ثم نصبح أصدقاء، وتأتي هي وباقي الكتاكيت، إخوته لزيارتنا بين الحين والآخر، ونصبح على علاقة بكل عصافير المنطقة بل وطيورها أيضا، وبمساعدة والدينا قد نمتلك أكبر مزرعة، لإنتاج العصافير في الشرق الأوسط، ونصبح أثرياء.

ما لبثت هذه الأحلام أن تبخرت بسبب التعب من البحث عن العش الذي لم نجده، وكم استغربنا منذ البداية من وجود عش في هذا المكان، فالشارع والمنازل التي فيه لا شجر فيها، وأعتقد أن رغبتنا في اكتشاف مكانه، فاقت رغبتنا في إرجاع العصفور إليه.

ما لبثنا أن استسلمنا، وسلمنا بأن الأم ولا شك قد بنت العش في مكان سري بعيدا عن أيدي البشر، وبدأ التفكير في مصير العصفور، وتمت مناقشة الأمر على مائدة العشاء باجتماع العائلة.

قال أبي: نذبحه، ونُنهي الأمر.

تجمدنا جميعا وبدت الدموع في أعيننا ونظرنا لأمي نظرة استغاثة؛ حتى ننقذ رقبة العصفور المسكين من حد السكين،

ولم يخب رجاؤنا بالمنقذة التي قالت: إنه صغير جدا ولن يكون فيه سوى العظام، لن يسد رمق أحد منا.

أبي: ماذا سنفعل به إذن؟

قلنا جميعًا في نفس واحد: سنربيه يا أبي.

أبي: وبعد؟

سكتنا، فضحك أبي بصوت عال وقال: كما تريدون، ولكني لن أكون مسؤولاً عن شيء.

أمي: سوف أساعدهم في الأمر.

لم يكن رفضنا ذبح العصفور رحمة به فقط، ولكنه كان أمرا حيك بليل، وهو قريب من الفكرة التي راودتنا عندما قررنا البحث عن العش.

قررنا نحن الثلاثة تربيته حتى يشتد عوده، ثم نقوم بتزويجه فينجب وتتكاثر العصافير، وهكذا ومن جديد حلمنا بالإنتاج وبالثراء.

كان علينا في البداية، البحث عن مأوى لرأس مالنا، بحثنا، ثم بحثنا، وبعد الكثير من البحث، أحضر أحمد علبة حذائه وقال: ما رأيكما؟ أليست مناسبة وقريبة من تصميم عشه؟

أنا: ليست كذلك، أين القش؟ وأين الأغصان الصغيرة، وأين....

قاطعني وائل: اصمتي أنت، ما زلت صغيرة.

أنا: لن أصمت.

أحمد: اصمتا أنتما الاثنان، ستكون عشا مؤقتا، وسنقوم بتجهيز عش أفضل له في الأيام القادمة، هيا بنا نضع له بها الطعام والماء.

ظهرت لنا مشكلة جديدة، وهي أننا لم نجد غطاء العلبة في أي مكان، فقال وائل: إن بقاء العلبة مفتوحة، سيشكل خطرا على حياته؛ إذ من الممكن أن يخرج منها، فإما أن يضيع، ويموت جوعا وعطشا، وإما أن تعثر عليه قطة، فلا تراه حجر أساس مشروع ضخم، ولا رأس مال، ولا ما يحزنون، وإنما وجبة خفيفة، بين الغداء، والعشاء.

أنا : لأول مرة تكون على حق.

وائل: اصمتي يا مزعجة.

أحمد: سنقوم بتغطية فتحة العلبة بشيء ما، وسنترك له مساحة صغيرة تسمح بدخول الهواء ولا تسمح بخروجه، ما رأيكم؟ على الموافق أن يرفع يده، ومن الآن فصاعدا،

كل ما يتعلق بهذا العصفور، سيكون برأي الأغلبية.

صوَّتنا على الفكرة، وحدث إجماع بالتنفيذ، فغطينا العلبة بكتاب ثقيل، ووضعناه في غرفتنا، وآوينا إلى فراشنا، نحلم بصباح جميل، حافل باللعب مع استثمارنا، وكل واحد منا يفكر في اسم له، وقبل أن أنام، قلت لنفسي: أريد تسميته السهم.

أخيرا جاء الصباح، فقفزنا من فراشنا قبل أن نغسل وجوهنا، وأزلنا الكتاب عن العلبة، وهنا علا الحزن الوجوه وجرت الدموع، يا لصدمتنا، لقد مات العصفور، مات المشروع، مات الثراء الفاحش، مات تغيير وجه تربية العصافير في الشرق الأوسط، وأخذتُ أرفع صوتي بالبكاء، فجاءت أمي، فارتميت في حضنها وقلت بكل ألم: لقد مات السهم.

قالت أمي باستغراب: من السهم هذا؟

أنا: العصفور.

قلنا جميعا: لقد مات يا أمي، إننا في مأتم.

ـ لا تبكوا يا أحبائي، ستجدون عصفورا آخر.

ـ لا نريد غيره.

ـ هيا، هاتوه حتى أضعه في صفيحة القمامة.

صرخنا: لا، سنقوم بدفنه.

قالت أمي: افعلوا ما يريحكم.

قمنا بلفه بقطعة قماش بيضاء، ودفناه بجوار المنزل، وعدنا أدراجنا، والحزن يسيطر علينا، وكم آلمنا ضحك أبي عندما عرف بما فعلناه.

لم نرَ أن من حقه الاستهانة بمشاعرنا؛ كان عليه التمتع بنبل أمي؛ لذلك انسحبنا إلى غرفتنا.

بعد ساعة من الصمت، أفقنا قليلا من الصدمة فقال أحمد: أرى أنه من الصائب، أن نبدأ تحقيقا في أسباب الوفاة، حتى لا يذهب دم المسكين هدرا.

هززنا رأسينا بالإيجاب، وسأل وائل: كيف مات، ونحن قد تركنا له ماء، وطعاما أكثر مما يحتاج ؟!!

أحمد: دعونا ننظر إلى المأساة من جميع الاتجاهات، لديه كل شيء فما المشكلة؟

بعد تفكير وتحليل وتشاور مع أمي وأبي، ودراسة لوضع السهم بشكل خاص ولوضع الطيور بشكل عام بدءًا بالضخم وانتهاء بالوليد، وأيضا بعد مراجعة لما درسناه بشأن الكائنات الحية، أصدرنا التقرير النهائي، وبعد التقرير أصدرنا البيان التالي:

يبدو أن المأسوف على طفولته كان يحاول الخروج بكل قوة، فأخذ يضرب برأسه في الكتاب مما أسفرعن وفاته.

بعد هذا البيان، قلت: يا له من غبي، لماذا لم ينتظر الغد؟ لم العجلة؟.

علق هذا الأمر في ذهني لوقت طويل، ثم ما لبثت أن نسيته مع مرور الأيام والسنين، وعندما أصبحت في المرحلة الثانوية، تذكرت السهم، فابتسمت ابتسامة عريضة وأدركت ببساطة، أننا والعصفور نفكر بشكل مختلف، فربما خاف أن نقتله في الغد فأراد الهرب، وربما أراد الخروج للبحث عن أمه، وربما رفض السجن، وربما مات من الحنين إلى أهله، من أين له أن يعرف عن نوايانا وعن مشاريعنا، وبأن ضرب رأسه بالكتاب سيقتله؟! وربما وربما، احتمالات كثيرة.

حتى سبب موته كان مجرد تخمين من قبلنا، فمن الجائز جدا أن سبب الوفاة كان شيء آخر.

لم يكن فيما حدث أي شيء مؤكد، إلا شيئا واحدا فقط: إن عدم وجود لغة مشتركة بيننا، أدت إلى أن يخسر العصفور حياته، وأن نخسر نحن استثمارنا الكبير.

***

٣ـ ابن الشارع

كنت قد خرجت في ذلك اليوم من شركة أنهيت فيها لتوي مقابلة شخصية في إطار بحثي عن عمل، عندما رأيته.

كان يعمل سائق سيارة أجرة، كانت الشمس ملتهبة، وكنت قد تأخرت على عملي الممل الذي كنت فيه وأود تركه بكل قوة.

ركبت خلفه، وجذبني بسرعة البرق، كان حبا من النظرة الأولى بكل معنى، ولكنها نظرة من نوع آخر، إذ كانت خلفية (نعم) بكل معنى الكلمة أيضا، فأنا لم أرى في بداية الأمر سوى ظهره.

لم نتبادل أية كلمة طوال الوقت، وكم تمنيت عندها أن يطول الطريق الذي لم أعد أراه، وأن تهبط الإشارات الحمراء من السماء وأن تخرج من الأرض، ولكن ما حدث كان العكس، فكل الإشارات وجدناها خضراء، وبدا وكأن السيارات قد

اختفت من الشارع، وأصبح كل السائقين يتحَلَّوْن بالأخلاق، ويتركوننا نمر.

أخذت أتأمل كل ما استطعت مشاهدته منه، شعره، يداه، وأي جزء أستطيع مشاهدته من وجهه، وأحاول أيضا النظر في المرآة الوسطى دون أن يلاحظ لعلي أرى عينيه، وكم كنت سعيدة عندما وجدتهما على نفس المرآة مثلي.

وحدث ما لم أكن أتمنى حدوثه، وصلت إلى مقر عملي، فحاولت التفكير بسرعة بطريقة تجعلني أحصل على رقم هاتفه دون أن أثير لديه أي شك في إعجابي به.

لمعت في ذهني فكرة، فسألته: هل أستطيع الحصول على رقمك؛ فأنا بحاجة لسيارة أجرة، تأخذني إلى عملي ومنه؟.

قال: نعم، ولكني مرتبط الآن ببعض الزبائن، ولن أستطيع الالتزام معك إلا بعد أسبوع.

بقيت أفكر فيه طوال ساعات العمل الذي لم يكن مملا ذلك اليوم، وعدت إلى المنزل، صعدت الدرج ركضا بل طيرانا، ولأول مرة لا أرى المنزل مملا، دخلت إلى غرفتي بكل سعادة وقصصت على أختي التي تصغرني بثلاث سنوات ما حدث، فضحكت وقالت: يا لك من مجنونة.

قلت لها: لم أكن أعرف أن الجنون جميل.

ـ أرى أنها مراهقة متأخرة.

ـ لم أكن أعرف أن المراهقة المتأخرة جميلة.

ـ بماذا تفكرين؟

ـ لا أدري، ولكني شيئا ما بداخلي يقول لي، إن قصة ما ستحدث بيني وبين هذا الشاب.

ـ هذا مجرد هراء، شارع ونظرة أولى، تركيبة غير ناجحة لفتاة عقلانية مثلك.

ـ تعبت من العقل.

ـ اصمتي حتى أنام.

نامت أختي، وبقيت ساهرة، فكيف للنوم تلك الليلة أن يزور عيني؟!

أصبحت أفكر فيه طوال الوقت، وتضايقت؛ لأنه لم يتصل بي، فصممت على أن أفعل المثل طوال الأسبوع، ثم ما لبثت أن بدأت أحاول التوقف عن التفكير فيه، وأخيرًا أقنعت نفسي، بأن ما أفعله مجرد عبث، وبأني لم ألفت انتباهه كما فعل هو؛ بدليل تجاهله.

مضى الأسبوع، ولم يتصل ولم أستطع المقاومة هذه المرة، وبررت الأمر بأني أريد التحدث معه في إطار عمل، أنا بالفعل بحاجة إلى سيارة.

كان قلبي يدق بسرعة أثناء ضغطي على الأرقام، وأستعد لسماع صوته الذي كان هو الآخر قد جذبني جدا، وبدلا من أسمعه سمعت الصوت الذي يفيد بأن الهاتف مغلق.

حزنت قليلا، واعتبرت إحساسي القديم مجرد وهم غذّته القصص الخيالية التي تعتمد على صدف غريبة.

بعد أسبوع آخر، وجدت أصابعي تتصل بابن الشارع مجددًا، ويا لسعادتي، لقد أجابني هذه المرة.

ـ أنا مريم، لا أعتقد أنك تتذكرني.

ـ بلى، أتذكرك جيدا.

ـ لا بد أن ذاكرتك قوية؛ حتى تتذكر كل من يركب معك.

ـ ليست كذلك، ولكن لا يمكن نسيانك.

أحسست بعد هذه المحادثة بأن الدنيا تبتسم لي، واتفقت معه على أن يقلني من وإلى عملي اليوم وكل يوم.

سار الوقت بطيئًا وأنا في انتظاره، نظرت لساعتي ربما مائة مرة، وحاولت بصعوبة بالغة إخفاء سعادتي وشرودي

أمـام زميـلاتي في العمـل؛ حتـى أتجنـب فضولهـن المزعـج.

كنـت أريد التحدث معـه أكثر، ومعرفـة كل شيء عنه، وأخيرًا جـاء وقت الانـصراف، وجاء المحبـوب الخلفي، وعـدت للتأمل وللمـرآة، أحسسـت ناحيتـه بانجـذاب غـير طبيعـي، وبأنه خلق لي وخلقـت له.

بادرني بالسؤال: كيف كان يومك؟

أنا: لا بأس به، وأنت؟

ـ مُتعِب؛ بسبب انتظارك.

أسـعدتني جملتـه جـدا، ولكنـي تظاهـرت بعـدم الاكـتراث، وسـألته باسـتغراب: انتظـاري؟!

ـ وصلـت منـذ سـاعة، وأخـذت أدور حـول المـكان، لم أكـن أطيـق صـبرًا، حتـى أراك وأتحـدث معـك.

خـلال الرحلـة القصـيرة إلى منـزلي، لم أبـادر بـأي سـؤال، بل كان هـو مـن يفعـل، أخبرته عـن دراسـتي وعن أهـلي وعن عملي وعـن أحلامـي وهوايـاتي، وعندمـا وصلنـا إلى المنـزل، التفت إليّ وقـال: أنـت جميلة.

أطـارت هـذه الجملـة عقـلي الـذي كنـت مشـهورة بـه، وفي سريـري تلـك الليلـة، اعترفـت لنفـسي قائلـةً: أنـا أحبـه، نعـم

أحبه وأتمنى أن أتزوج به وأن أحيا معه طوال حياتي.

لم تدم سعادة رؤيته والحديث معه كثيرا، فبعد عشرة أيام قال لي: ستكون هذه آخر مرة أوصلك فيها، فلقد وجدتُ عملا أفضل بكثير.

ـ ألن أراك مرة أخرى؟

ـ بالطبع ستفعلين، سيكون بيننا تواصل، وسنرتب مقابلات بيننا .

بعد هذه الليلة، مضى أسبوع كامل، دون اتصال منه أو رسالة، وبما أن علاقتي به كانت منذ فترة قصيرة، كان علي أن أتصرف باتزان وبأن لا أبدي مشاعري أبدا تجاهه، فمن تربيتي أعرف أن الرجل لا يحب الفتاة التي تركض خلفه.

بقيت على هذه الحال عشرة أيام، مضت علي وكأنها أشهر، لم أعد آكل جيدا، وبدأت أحس بضيق شديد وبرغبة في البكاء، وكان النوم يجافي عيني في كثير من الليالي، وفي كل مرة أمسك فيها بالهاتف، أجد كرامتي تمنعني.

كنت أخبر والداي بأن سبب ما أنا فيه هو أن مشاكل العمل تزداد، فألحا علي بتركه، خاصة وأنه لا يوجد ضرر من بقائي مدة دون عمل، أما أختي فكانت في حالة استغراب من هذا الهيام القوي، وأرجعته لبلوغي الواحد والثلاثين دون ارتباط.

بعد أسبوعين من غيابه، حدث الانهيار الذي كنت أخشاه، ولم تعد هناك قوة تمنعني من الاتصال به، وقلت: فلتذهب كرامتي إلى الجحيم، لا توجد كرامة في الحب أكاد أجن، أريد فقط سماع صوته، لقد حدث له مكروه ولا شك.

عندما أجابني، أحسست بأن جبلا قد أزيح من على صدري، وبدأت دموع الفرح تنهمر من عيني، ولكني كتمت صوت البكاء عنه، وقلت: لقد اشتقت إليك كثيرا.

فيصل: وأنا أيضا.

ـ لم تتصل إذن طوال هذه المدة ؟!

ـ لقد كانت زوجتي مريضة.

وقعت كلمة زوجتي عليَّ كالصاعقة، فصمت، لم أدري ماذا أقول، فسألني: أما زلت معي يا مريم؟

تماسكت على قدر استطاعتي وقلت: لم تأتي على ذكر أمر زواجك هذا.

ـ لم تسأليني.

ـ معك حق، أنا آسفة على إزعاجك.

ـ أرجوك اسمعيني حتى النهاية.

لم أستطع إلا سماعه، كنت أضعف بكثير من أن مجرد أن أغضب منه، فكيف بقطع علاقتي به، فأعطيته فرصة ليتكلم.

ـ أنا متزوج منذ أحد عشر عاما، كنت في العشرين من العمر، كان قرارا أحمقا وطائشا، لم أكن أعي من عالم النساء شيئًا، استطاعت أن توقعني بذكائها فهي تكبرني باثني عشر عاما، لقد كان الزواج فاشلا من أول يوم.

ـ لماذا تستمر فيه إذن؟

ـ إنها تُقَيِّدُني من الناحية المادية، وأنا أسعى جاهدا للتخلص من هذه القيود، لذلك كنت أعمل في أي مجال أجده أمامي، أنا أعرف بأنك تحبيني وأعرف ماذا تريدين من هذا الحب، أنا أيضا أحبك.

أحسست حينها، بسعادة ممزوجة بالمرارة، فسألته بألم: وما الفائدة؟

ـ كل ما عليك هو انتظاري، حتى أتخلص من حياتي الحالية، مريم، أنت كنز بقلبك، وبشخصيتك، لن أفرط فيك أبدا بعد أن وجدتك، فهل ستفعلين؟

ـ نعم، سأفعل.

صدقته، لأني أردت ذلك، وكنت لأصدق أي عذر يقوله، لقد كان يمتلكني بشكل كامل.

قصصت كل شيء على أختي التي أخذت تلومني بشدة: ألست من تقولين إن كل المتزوجين يخدعون الفتيات بنفس الكلمات والأعذار والقصص التي يلفقونها عن زوجاتهم؟ هل نسيت كم كنت تكيلين النصائح لزميلاتك عند اقتراب إحداهما من متزوج، حتى لا يسقطن في أكاذيبه؟

لم تكن هناك كلمات، أو نصائح تفيد معي، فالإسكافي حافي، وقعت في المحظور.

مرت الأيام والأشهر، ونحن فقط نتحدث على الهاتف، لقد كان من الصعب أن نتقابل، رغم شوقي الشديد إليه ورغم شوقه لي، هذا ما كان يخبرني به.

تخيلت اللحظة التي يأتي إلي فيها و يقول، لقد أنهيت حياتي التعيسة، وأريد الزواج منك، أسعدك وتسعديني، تخيلتها مرارا وتكرارا.

ولكن ما حدث كان انقطاعا تاما لاتصالاته ولرسائله، فأصبحت أعيش ما بين نار الشوق التي تدفعني إليه، ونار الكرامة التي تبعدني عنه، خاصة وأنه لم يخبرني بشيء قبل ابتعاده بهذا الشكل.

ومجددا ذابت الكرامة أمام حرارة الشوق، وأمام خوفي من حدوث مصيبة له، فلطالما أخبرني عن معاناته مع زوجته، ومع أهله الذين لا يحبونها خاصة أمه؛ فلقد أخذت منها ابنها المدلل وتزوجته دون علم عائلته.

كنت أتألم من الإجهاد الذي يبذله في العمل لساعات طويلة؛ ليستطيع التملص من زواجه، كنت أشفق عليه حتى من الهواء، أحببته أكثر من نفسه.

اتصلت، واتصلت، ولكن دون جدوى.

بعد ثلاثة أشهر خسرت فيها الكثير من وزني، واعتاد الجميع على شرودي، اتصل بي، واعتذر عن انقطاع اتصالاته، وعزا ذلك إلى ظروف طارئة، سيخبرني بها فيما بعد، كما أن عمله أصبح بين هذه المدينة ومدينة أخرى، ثم بدأ يمطرني بكلمات الحب والشوق.

طوال فترة غيابه هذه كان عقلي يلح علي بفكرة أنه كاذب، وبأنه يلهو بي، ولكن قلبي كان يرفض هذا تماما، ولكن إرضاء لعقلي قليلا، قلت له بحزم: أنت كاذب تتسلى بي، لقد نسيتك وكففت عن حبك، فلا تتصل بي مجددا.

ـ بل أنت الكاذبة فيما تقولين، مازلت تحبينني، ربما هدأ الحب قليلا، ولكنني متأكد أني أستطيع إشعاله مجددا.

لم يكـن عليـه أن يفعـل؛ فحبه لم ينطفـئ أبدا، صدَّقتـه وعادت الميـاه إلى مجاريهـا، وبعد شـهر عـاد ليختفي، وعـدت للعذاب.

بقينـا عـلى هـذه الحـال سـنتان، يظهـر فيصـل ثـم يختفـي، ثم يعـود ليتصـل ثـم ينقطـع عنـي، ثم يعـود ليقابلنـي، ثم يسـافر أو ينشـغل، وهكذا.

سـنتان كنـت أتنقـل فيهـما بـين الألم، والحرمـان، والشـوق، والصدمـة، والتنـازل، والتفكـير، وعـد السـاعات، ومقاومـة الاتصـال، والأرق، والدمـوع، وطوال هذا الوقـت كان يؤكد لي، أن وقـت تخلصـه مـن زوجتـه قـد اقـترب.

هـل هـو صـادق؟ هـل هـو كاذب؟ هـل أنـا غبيـة؟ مـاذا عن مشـاعري، طـوال هـذا الوقـت؟ لا أصـدق أنهـا تخدعنـي! هـل حـب النظـرة الأولى كـذب؟ هل إحسـاسي بأنه خلـق لي وخلقت لـه خـادع؟ مـاذا عـن الكيميـاء بـين النـاس؟ أحـضروا لي عِلْـمًا يسـتطيع تفسـير مـا أنـا فيه.

بـدأ والـداي يكفـان عـن سـؤالي عـن تقلـب مزاجـي؛ إذ أصبحـت أعزو السـبب إلى مشـاكل العمل الجديـد، بالإضافة إلى أني أصبحـت مـع الوقـت والألم أكثر مهـارة في إخفاء مشـاعري، أمـا أختـي فلقـد تحوّلـت مـن اللـوم إلى الإشـفاق.

بعد غياب اعتدته، جاءت الذكرى الثانية للقائنا، اتصل بي وقال: سآتي لأقلك من المنزل.

عندما تحركت السيارة سألته، إلى أين سنذهب هذه المرة؟

ـ إلى منزلي، إن زوجتي خارج المدينة؛ في زيارة لوالديها.

ـ أنجلس وحدنا هناك؟

ـ إنها آمن من الأماكن العامة، ألا تثقين في؟ أو ربما لا تثقين في نفسك.

ـ ليست مسألة ثقة، ولكنه أمر خاطئ لا أستطيع عمله.

ـ أنا أخاف عليك يا مريم أكثر من نفسك، هل تظنين أني سأؤذيك؟

ـ لا، ولكن....

ـ لو فعلت أي شيء يضايقك انصرفي فورا، لن أمنعك.

صرخ عقلي رافضا، ولكن صوت القلب كان مازال هو المسموع.

في شقته ضمني، ولم تُجدي مقاومتي الضعيفة نفعا، وأخذ يتصل بي بعد ذلك يوميا طالبا نفس الأمر، ولكني كنت قد قطعت على نفسي عهد بألا أفعل، ولكني ما لبثت أن تراجعت وذهبت معه إلى هناك مرة أخرى بعد

أسبوع، بعد أن وعدني بأننا سنكتفي بالكلام، ولكن بعد قليل من جلوسنا معًا اقترب مني وأخذ يضمني ويقبلني، ووجدت أن رغبتي في المقاومة قد اختفت.

عندما طلب نفس الشيء مرةً ثالثة رفضت؛ إذ أدركت أن بيني وبين الانزلاق فيما لا تحمد عقباه خطوات قليلة، بل ربما خطوة واحدة.

فهم جيدا ما يخيفني وصارحني فأكدت له كلامه، عندها أخذ يقسم لي بأن هذا من المستحيل أن يحدث وأنه لن يزيد شيئا عما فعل سابقا مهما كان عدد المرات التي سنجلس فيها وحيدين، فعدت لتصديقه، إلا أن عقلي استطاع أخيرا الإمساك بدفة الأمور فبقيت مصممة على رفضي، فقال لي: ليت عقلك جميل مثل جسمك.

أنهى المكالمة، وأغلقت هاتفي أسبوعا كاملا، كانت جملته ترن في أذني طوال أيامه، وعندما أعدت تشغيله لم أجد أية رسائل أو اتصالات من حبيب الشارع.

مرت ستة أشهر بعد هذه الحادثة، لم أسمع فيها من فيصل أية كلمة، ولم يسمع فيها شيئا من قِبلي.

خلال هذه المدة أخذت أتخلص بالتدريج من حبه، لقد كنت أدمنه دون أدنى شك، كنت مصابة بكل الأعراض التي تؤكد ذلك.

ما أكد لي شفائي منه، أني طوال هذه الأشهر لم أرغب في الاتصال به، لم أشتق له أو لصوته.

عادت إلي ابتسامتي واهتمامي بنفسي وبمن حولي وبعملي، وعاد لي بعض من الوزن، وعاد نومي إلى هدوئه.

في ذكرى لقائنا الثالثة جاء صوته عبر الهاتف، ويا لسعادتي التي لم يكن مصدرها اتصاله بل كانت لأني لم أجد ذلك الأثر القديم لهذا الصوت، لم أجد الحنين، والشوق، والوله، والولع، والعشق، لقد شفيت تماما، مات حبه في داخلي، ماااااااااات.

صارحته بإحساسي عندها لم يصدقني مؤكدا لي خلود الحب، وكم أغاظني ادعاؤه بأنه يعرف مشاعري أكثر مني، ثم أخذ يخبرني بشوقه وبمشاعره، ويبرر غيابه عني وإهماله لي.

عندما رأيت أنه لا جدوى من إقناعه بمشاعري طلبت منه عدم الاتصال بي مجددا، ووعدته بأني سأفعل إذا وجدت حبه ما زال حيا، عندها أخبرني أنه طلق زوجته وعرض علي أن نكون صديقين على الأقل.

في اليوم التالي وجدت رسالة منه على هاتفي يعرض فيها عليَّ الزواج منه عرفيا.

٤ـ الحرب

أجمل ما يحدث في اليوم الدراسي هو ذلك الوقت الرائع، الذي ننتظره نحن الطالبات على أحر من الجمر؛ خشية أن نلتصق بمقاعدنا أو أن نكمل أحلامنا التي توقفت في منتصفها عندما استيقظنا للحضور إلى المدرسة، بالإضافة إلى عصافير معداتنا التي بدأت تزقزق، إنه الوقت المستقطع بين الحصص الأولى، والأخيرة (الفُسْحة).

نخرج عند سماع جرسها، راكضات بسرعة كفيلة بأن تحصل بها إحدانا على ميدالية في سباقات العدو، وستكون الذهبية في حال الكثير من الطالبات، ولم يكن من المستغرب أن تكون المعلمة مازالت داخل الفصل في بعض الأحيان ولتكن ممتنة إذا لم تصطدم بها طالبة أو أكثر (عند البطون تتوه العقول).

نركض إلى شباك بيع الطعام والشراب، ونهجم هجوم من لم تره أو تَرُح حتى رائحته منذ أسبوع، وبمجرد الوصول إليه،

يحدث التحام جسدي فتصبح كل البنات أمامه كتلة واحدة متداخلة، وتتعالى أصواتهن بما يردن.

كان هذا أمرا طبيعيا في مدرسة يقترب عدد طالباتها من الخمس مئة طالبة ولا يوجد بها سوى شباك واحد فقط لإمداد هذه الجماهير الجائعة العطشة، تتخلله قضبان حديدية تشبه قضبان السجن، ولم يكن معروف هنا من السجينة ومن السجانة.

قررت أنا وصديقتي عندما وصلنا إلى السنة الثالثة من المرحلة المتوسطة، تجنب عملية الطحن والفعص والهرس اليومية هذه، فأصبحنا نحضر كل ما نتناوله من طعام من المنزل.

وهكذا انسحبنا من الحرب دون خسائر أو تنازلات، كان هذا هو الدافع المُعلن لما فعلناه، أما الدافع الغير معلن، فكان أننا قررنا أن يكون وقت الفسحة هو وقت مشاهدة التلفزيون.

كان الجهاز الخاص بنا هو شباك البيع، فكنا ننطلق عند سماع جرس الفسحة كالسهم؛ لنجلس في أفضل نقطة للمراقبة في الساحة الكبيرة المخصصة لتناول الطعام، تزامنا مع بدء عرض المسلسل اليومي الذي أسميناه (الحرب)، نأكل ونراقب ونعلق ونضحك.

فهـذه الفتـاة يدها فـوق كتف تلـك، وظفيرة مـن في الأمام قد تمـددت عـلى رأس مـن تقـف خلفهـا أو على كتـف مـن بجانبها، وتبـدو لفتـاة واحـدة أربعـة أرجـل، وتلـك احتُجِـزت داخـل الزحـام لدقائـق بالرغـم مـن إتمامهـا صفقتهـا الملطخـة بالعـرق وربـما بالدمـوع أيضـا، وهـا هـي فتـاة قـد فقـدت فـردة حذائهـا وجلسـت قريبـة مـن سـاحة القتـال حتـى تنفـض المقاتـلات فتجـده، وهـذه أخـرى لا نـرى منها سـوى يدهـا التي تمتـد بالمال للبائعـة، والتـي لـو قطعـت لبقيـت ثابتـة في مكانهـا، وتلـك قـد تمزقـت ملابسـها، وهـذه فقـدت حزامهـا وربـما يبقـى في عـالم الغيـب للأبـد.

كانـت بعـض الطالبـات تمد يـدا بالمـال وتضع يدهـا الأخرى عـلى أنفهـا؛ حتـى لا تشـم رائحـة العـرق وهو مـا كان شـائعا في الصيـف، أو ربـما بسـبب رائحـة شيء آخـر، فمـما لا شـك فيـه حـدوث انطـلاق قنابـل غازيـة مسـيلة للأنـوف بشـكل يومـي في هـذه الكـرة البشريـة، التـي بفضلهـا كان مصـدر القنبلـة يبقى مجهو لا .

كانـت المحظوظـة في هـذه المعركـة الشرسـة، هـي السـمينة والطويلـة، فالأولى تسـتطيع أن تدفع الجمـوع وتخترقها كما تخترق الدبابـة أرض المعركـة فيتفـرق الجنود أمامهـا فتظفر بـما تريد، أما الثانيـة فهـي مُشرفة عـلى الجميع طويلـة اليدين تصـل حيث تريد

ورأسها واضح للعيان تختار وتدفع وتأخذ بمنتهى السهولة، وكم رأيت من فتاة قصيرة تترجى سمينة أو طويلة لتشتري لها، أو تلتصق بها وتتحرك خلفها، كما تتحرك السيارات الصغيرة خلف سيارات الإسعاف أو المطافي.

كنت وصديقتي عندما نرى صديقتين متباينتين في الحجم نغمز لبعضنا البعض ونقول: هي صداقة مصلحة الشراء ولا شك .

وعندما كانت تتغيب طالبة عن المدرسة كنا نقول: لا بد وأنها تعاني من كسر في أضلاعها، أو من أصابع مدهوسة في قدم وربما في الاثنتين، أو من خلع في كتفها، أو اقتُلعت إحدى ظفيرتيها من رأسها.

كانت المدرسة تحصل على مبلغ زهيد من كل طالبة ترغب المشاركة في هذا (المقصف أو الكانتين)، على أن تأخذه مضاعفا أربع أو خمس مرات آخر العام، فكنا بما نفعل نشرف أيضا على استثماراتنا، وكنا سعيدتين بأنها مخصصة للمرحلة المتوسطة والثانوية فقط، فبالتأكيد سيكون من المزعج أن تتلطخ أموالنا بدموع الأطفال.

بعد انتهاء الفسحة، تبقى بعض المشاهد أيضا، فكم رأينا من طالبة تكمل تناول ما اشترته في الطريق إلى الفصل أو

بداخلـه؛ إذ لا يكـون الوقـت كافيـا لمـن خرجـن مـن المعمعـة متأخـرات.

ورأينـا أيضـا أطعمة قـد أُلقِيـت ولم يؤخذ منها سـوى قضمة، ومشروبـات لم ينقص سـوى القليـل منها؛ لنفس السـبب.

لم تشـفع هـذه الأمـور والحـوادث والإصابـات، عنـد إدارة المدرسـة؛ حتـى تخصص شـباكا آخـر للبيـع أو حتى توجِـد نظاما يضمـن العـدل في الـشراء، فـما كان يحـدث يعـزز مبـدأ القـوة والعنـف والغلبـة للأقـوى.

في نهايـة اليـوم، كثـيرا ما عـدت وصديقتي إلى منزلينـا بآلام في الصـدر وفي الظهـر، الأولى مـن كثـرة الضحك، والثانيـة من كثرة مـا تـضرب أحدنا الأخـرى عـلى ظهرها؛ فلـم تكن تمر (فسـحة) إلا وتغـص أحدنـا بالطعـام أكثر من مرة أثناء مشـاهدة مسلسـلنا اليومي.

***

٥ـ سألني

كنتُ أجلس على سريري أقرأ كتابا حين فُتح باب غرفتي دون أن يُطرَق.

لم أشعر بالانزعاج؛ فهذه هي عادة أمي العزيزة اللذيذة، وبمجرد أن رأت الكتاب، سألتني ببعض الضيق: ماذا تقرئين؟

وضعته جانبا وقلت بابتسامة لطيفة مثلي: ليس شيئا مهمًا.

ـ لماذا تقرئينه إذن، مادام تافها؟!

ـ لم، أقل إنه تافه.

وقفتُ واتجهت إلى الباب وقلت: لا داعي لأي انفعال، سأذهب الآن لأغسل الأطباق.

ـ ليس هذا ما جئت من أجله.

ـ لا بد أنك تمزحين معي هل يوجد سبب آخر لانفعالك؟!

ـ أنا غير مرتاحة لما تقرئين، فهو يزيد من طول لسانك.

ـ الجميع يقول عني بأني قليلة الكلام.

ـ هذا، لأن لا أحد من الجميع يعيش معك.

قبل أن أنطق بكلمة، أشارت إلي بالسكوت وجلست على سريري وقالت: اصمتي، ودعيني أخبرك بما أتيت من أجله، أريدك أن تستعدي؛ فهناك عريس سيأتي لرؤيتك يوم الخميس.

تفاجأت وسألت: بعد يومين؟! وكيف لي أن أستعد في هذه المدة القصيرة؟!

ـ وما هي الاستعدادات التي لا يكفيها يومان؟!

ـ أريد أن أخسر بعض الكيلوات من وزني، وأريد....

مقاطعة: لا أريد كلمة أخرى.

ـ سأرتدي ملابس سوداء إذن فهي تُبدي الشخص أقل وزنا ببضعة كيلوات.

مهددة: إذا فعلت ذلك فتأكدي أني سأحلق شعرك بموس والدك.

ـ حسنا.

ـ أريد أدبا وذوقا، ممنوعة هي الأسئلة دعيه يفعل، ولا تتحدثي مطلقا دعيه يفعل، ولا تحدقي به.....

ـ سأدعه يفعل.

همت أمي بمغادرة غرفتي فسألتها: ما هي مواصفاته؟

ـ مناسب من كل النواحي، عمره يقارب عمرك، جامعي مثلك، عائلته تقارب عائلتنا في كل شيء، موظف براتب جيد سيؤمن لك حياة كريمة، لم يسبق له الزواج.

ـ هل كريمة هي أمه؟

ـ أتمنى لو تصابين بالخرس يوم قدومه.

ـ ماذا عن شكله؟ أبيض أم أسود، طويل أم قصير، لا أريده سمينا .

ـ يوم الخميس ستعرفين كل شيء، سيأتي وحده فأهله في مدينة أخرى، وسيأتون جميعا في حال الاتفاق.

خرجت أمي، وتركتني أفكر في كل شيء يخص العريس، وكم رجوت أن يكون وسيما، طويلا، رشيقا، حنونا، مؤدبا، هادئا، عذب الحديث، متفتح الذهن، مثقفا، يحب القراءة وركوب الدراجة مثلي.

جاء يوم الخميس وجاء العريس، ووضعت على وجهي الأحمر والأخضر، ولبست المكشكش والمنقوش، أما شعري فبقيت أكثر من ساعة لا أعرف ماذا أفعل به، تارة آتي به يمينا وتارة يسارا وتارة أرفعه وتارة أُنزله، لدرجة أني فكرت في موس أبي.

لم يكن علي تجهيز نفسي فحسب، بل أيضا تحضير العصير وما لذ وطاب من الفاكهة والحلويات، وكلي أمل أن يكون أهلا لأكلها.

دق جرس الباب فدق قلبي معه، وركضت إليه والتصقت به أنظر من العين السحرية؛ حتى أرى الخاطب، وكم كنت أود أن أصرخ به قائلة: ارجع للخلف قليلا فأنا لا أرى سوى ربطة عنقك.

جاء أبي إلى حيث أقف فرمقني بنظرة مزعجة، أعلنتُ إثرها انسحابي من المقدمة، بعد أن ترك الباب أثره في وجهي، وتراجعت حيث المطبخ، واعتبرت أن لون ربطة العنق الأحمر، بشرى خير.

وقفت أمام باب المطبخ؛ في محاولة أخرى لرؤيته ولكن دون جدوى، ولم أفز إلا بلمحة لظهره فأعجبني طوله الذي ربما يصل إلى ١٨٠ سم، وكذلك رشاقته وأناقته، كما أعجبني حذاؤه المناسب للون ملابسه كان لامعا، لا شك أنه جديد.

أنا ضد التجسس، إلا أني التصقت بباب غرفة الاستقبال؛ لأسمع ما سيقال، مبررة فعلتي بأن الأمر يخصني، ولكن لسوء حظي كان الصوت منخفضا فلم أسمع شيئا، ورأيت أنه لا بد من التوقف؛ خشية انتقال زينة وجهي إلى الباب لو اقتربت أكثر.

جاءت لحظة الصفر وهي لحظة دخولي بالعصير، وهنا دعوت الله قائلة: اللهم ثبتني عند السؤال، وقصر لساني، وأبعدني عن كسر قواعد أمي، وثبتي على الحذاء ذي الكعب العالي، فلا أقع على وجهي أمامه، فينسكب العصير وتتكسر الأكواب وربما أصاب كوبا منها ركبته فأهمل العلاج ، ثم مات من التهاب الجرح.

استعذت بالله من هذه القصة المأساوية ثم قلت: أرجو أن يقف إعجابا بجمالي ويحمل عني صينية العصير.

دخلت وقدمت له كأسه، والحمد لله لم يحدث ما خفت منه، وأيضا لم يحدث ما رجوته.

جلست، وكم كانت طويلة هي المسافة التي قطعتها من عنده إلى المقعد المقابل له المخصص لمعاينته، لم ينظر لي في البداية، ربما كان تظاهرا منه بالخجل وربما هو خجول بالفعل، وهنا كانت فرصتي لأجري مسحا شاملا لملامحه ولكل شيء فيه رغم خجلي الشديد، كان وسيما وشعره جميل.

وفجأة، يا إلهي ها هو ينظر إليَّ، بدا الإعجاب في نظراته وأصبح محتارا بيني وبين الأرض وبين كأس العصير، إذ أخذ يوزع نظراته بيننا بالتساوي ورأيت أنه في حيرة من أمره.

بقي صامتا، وكنت بانتظار أن يتحدث وأن يسأل وأن يفعل هو كما قالت أمي، وعندما وجدت أن لا جدوى من الانتظار رأيت أنه لا بأس من مخالفة أمر واحد فقط، سألته: ما هي هواياتك؟

كان سؤالي طوق النجاة لعينيه، التي تعبت من التحديق في كأسه، فقال:

أحب مشاهدة الأخبار كمعظم الرجال العرب، فهذا هو ما يحبونه منذ ما يقارب القرن أو بمعنى أصح منذ اختراع الأخبار.

ابتسمت، فقهقه وأكمل: وأحب لعب كرة المضرب، والخروج والسهر مع أصدقائي بين الحين والآخر، يوما أو يومان في الأسبوع فقط، اطمئني لن يأخذوني منك.

ابتلعت ريقي خجلا بعد هذا الإطراء والغزل الغير مباشر، فلاحظ الأمر وسألني: أخبريني عن هواياتك أنت.

ـ أحب القراءة.

ـ في أي المجالات تفعلين؟

ـ القصص.

لم أرد أن أخبره بأني أقرأ في الفلسفة وعلم النفس والتنمية البشرية وعلم الجريمة والتشريح؛ فينفر مني، وقلت لنفسي: لا بأس، ليعرف بعد الزواج.

لاحظ أبي ارتباك الرجل فنهض قائلا: سأترككما سويا بعض الوقت؛ لتتحدثا بحرية.

غادر أبي المكان، وعندما هممت أن أطلب منه أن يتحدث عن نفسه وعن حياته وعمله، رنت في أذني كلمات أمي: دعيه يفعل، دعيه يفعل.

فجأة نظر العريس إلي بعينين قويتين وبملامح خلت من أي خجل، وسألني: هل أنت بكر؟

أحسست عندها أن عظمة وقفت في حلقي، بل أحسست أن الحيوان صاحب العظمة قد وقف بكامله هناك، وأحسست أني أتنفس تحت الماء، وبأن كل دمي قد اندفع إلى دماغي.

استمر في كلامه: أنت في السابعة والعشرين وتعملين منذ سنوات....

وقفت فتوقف عن الكلام، واستجمت شجاعتي ونسيت كل القواعد والأوامر بل نسيت أمي شخصيا، فنزل الدم من دماغي إلى لساني وقلت له بحزم: سأجيبك عن سؤالك شرط أن تجيبني أنت على نفس السؤال، هل أنت بكر يا هذا؟

نظر إليَّ مستغربا وكأنه تفاجأ بالتحول الذي حصل لي، أو تفاجأ من سؤالي الذي لا أعتقد أنه وجه إليه من قبل.

لم أزح عينيَّ عنه هذه المرة وهو أيضا لم يفعل، كنا كفارسين يقفان مقابل بعضهما البعض استعدادا للنزال.

صمتنا للحظات بدت لي كالدهر، ثم قال بصوت فيه نبرة استهزاء: أنا رجل....

قاطعته مرددة كلامه: نعم، أنا رجل ولا يعيبني شيء هل هذا ما تقصده؟

ـ هو ما قلتِ، كيف تجرئين على مثل هذا السؤال؟.

ـ بل كيف تجرؤ أنت؟! هذا أمر لا يعنيك.

انفعل، وسأل: لا يعنيني؟!

ـ نعم، أنت في الثلاثين من العمر، وربما كنتَ على علاقة مع امرأة بل وربما أكثر، ولكنك تقول لنفسك، من تاب تاب الله عليه، أو ربما تكون ما زلت متورطا في بعض العلاقات،

أو حتى زير نساء أيضا، وما زالت حجتك: أنا رجل، أما أنا فمصنوعة من الحلوى أو ربما من صخر فلا يحدث مني خطأ ولا توجد لديَّ رغبات.

هنا وقف وبدا عليه الغضب الشديد، لدرجة أني توقعت أن يضربني، فبدأ نظري يتحرك بينه وبين كأس أبي، فإذا ما فعل فسأضربه به على جبهته بكل قوة.

قطع تفكيري الدفاعي الدموي بقوله: إذا أنت لست بكرا ؟

قبل أن أنطق بأية كلمة تحرك ناحية الباب، ثم وقف عندما بدأت بالكلام: إن من حقك أن تحاسبني على ما بعد الزواج بك وليس على ما قبله، وأنا كذلك.

هزَّ رأسه، وقال باستهزاء: هكذا إذن؟!

خرج من الغرفة وتوجه إلى باب المنزل وغادره، وحمدت الله على أن أبي لم يظهر بعد، فلحقت به وقلت له: يا هذا أنا بكر .

صفقت الباب؛ علّه يغتاظ فيسقط على السلم فيلحسه بلسانه وينظفه بملابسه الأنيقة.

جاء إلي أبي وأمي مسرعين ومنزعجين، سألت أمي: ما الأمر؟ ماذا قلت له يا صاحبة اللسان الطويل؟

هنا نظرت لأبي وبكيت وقلت: لقد قال إني قصيرة يا أبي وبأنه سيشعر بالإحراج لو مشى في الشارع معي، هل تصدق هذا؟

ضمني أبي وقال: يا له من شاب تافه بلا ذوق، لا بأس يا عزيزتي، ذات يوم سيأتي القصير الذي لا يتكبر عليك.

نظرت أمي إلي شزرا، ولكنها لم تنطق.

***

٦ـ الضحك ممنوع

كنت أحب الزيارات القليلة التي كانت تتبادلها أمي مع صديقاتها وجاراتها؛ فهي فرصة لي لمعرفة المزيد عن عالم النساء الذي كنت أرى كل شيء فيه غريبا ومميزا، أما المناسبات التي كانت تجمع بالإضافة إليهن نساء لم أكن أعرفهن فكنت أعشقها .

كنت أحب المقارنة بين الملابس وبين ألوان (الماكياج) في كل حدث، وبدأت أدرك القواعد التي يسرن عليها، فمثلا يكن في الأعراس أكثر أناقة منهن في الزيارات، وألوان (الماكياج) أيضا كانت تختلف، ففي الأولى تكون ألوانها أكثر سطوعا وتجعل النساء أكثر جمالا بكثير.

عندما تقرر أمي (البيتوتية) الخروج، كنت أطير من الفرحة وأظل ملتصقة بها؛ أراقبها أثناء تأنقها وتزينها أمام المرآة، كما كنت أُقَبلها كثيرا وأضمها إذا ما أنعمت علي ببعض الألوان.

كنت أقوم بمساعدة أخي في دروسه عندما قالت لي أمي: أنا سعيدة بمساعدتك لأخيك.

أنا: ولكنه لا يطيعني دائمًا.

ـ سيفعل مع الوقت، هل أنهيت واجباتك؟

ـ بقي واجب الرياضيات فقط.

ـ أنهيه بسرعة، وإلا لن تذهبي معي.

بمنتهى الحماس: إلى أين؟

ـ سألبي دعوة جارتنا عواطف لتناول الشاي حيث ستحضر بعض من صديقاتها.

ـ حسنا، سأنهيه حالا.

أنهيت واجبي بأسرع من البرق، غير مكترثة إلى صحة الإجابات، ولا إلى صراخ أمي الذي سأتعرض له بسبب الأخطاء التي ستجدها عندما تراجعه، كل ما كان يشغل تفكيري هو هذه الزيارة وما سأراه فيها وما سأسمعه من قصص وطرف وأخبار.

ارتديت ملابسي بسرعة وساعدت أخي ليفعل؛ متيحة الوقت لأمي لتعد نفسها فلا نتأخر، أحب أن نكون أول الحاضرين.

غادرنا المنزل، وقبل أن ترن أمي جرس عواطف قالت لنا بلهجة صارمة: عليكما التزام الهدوء طوال الوقت، وأي شيء يُقدم لكما خذاه أو ارفضاه بهدوء.

ـ كما تشائين.

عندما دخلنا غرفة الضيوف وجدنا العديد من النساء وهذا ضايقني كثيرا؛ فمعناه أن الكثير من الأحاديث قد فاتتني.

نهض الجميع للسلام على أمي، وكم كنت أكره هذا الطقس المُتَّبع لدى النساء، فالسلام عندهن لا يكون مصافحة فقط بل تبدأ القبلات، والسؤال عن الصحة، والأولاد، والزوج، والأهل، وأهل الزوج، وكل من في البلاد تقريبا.

القبلات هي أكثر ما كان يزعجني؛ فهي تصيبني بالحيرة، هل أقترب أنا أولا أم على الطرف الآخر أن يفعل؟ وكم قبلة ستُطبع على كل خد؟ ومن منهن ستخص خدا واحدا بكل النعيم؟ وترى هل رائحتي جميلة أم سأرى تعبيرا سيئا على وجه إحداهن؟ وهل سأشم بدوري رائحة جميلة أم رائحة غداء اليوم أم رائحة أخرى؟ كان أخي ذو الخمس سنوات يمسح وجهه دائما بعد هذا، أما أنا فلم أكن أستطيع ممارسة هذا الامتياز.

أخيرًا عبرنا نحن الثلاثة بحر القبلات والأسئلة ووصلنا إلى بر الجلوس، وأنا متشوقة لمعرفة سبب الضحكات التي قاطعها دخولنا، ولكن لم يكن هناك أمل في أن تستفسر أمي عن الأمر؛ فهي لم تكن تجيد أبدًا طرح الأسئلة أو مسايرة الأحاديث المطروحة بشكل جيد، كانت غير فضولية وكأنها ليست بامرأة!!

تسمرت عيناي على إحداهن؛ ليس لأنها وجه جديد أو لأنها صاحبة ضحكة مجلجلة غطت على ضحكات الجميع فحسب، بل لأني أردت معرفة هل هي سمراء أم بيضاء، وهو ما لم يكن واضحًا بالعين المجردة؛ بسبب طبقات الزينة الكثيفة التي وضعتها على وجهها.

وحيرني أنها صنعت كل هذا من أجل زيارة عادية، ولكني سرعان ما قلت لنفسي: هي ذاهبة إلى عرس ولا شك فور خروجها من هنا.

بعد أن يئست من عملية الاستكشاف تمنيت أن أقول: أرجو أن تعيد صاحبة القصة الأخيرة قصتها من البداية، ولكني لم أتجرأ وحتى لو فعلت، لا أعتقد أنها كانت لتستجيب لطفلة في الثامنة.

لم يبقى لي أمل إلا أن تقوم بطلتي الحقيقية عواطف بهذا الطلب؛ فهي من النوع الذي لا يترك شاردة ولا واردة دون أن يعرفها، وإلا مرضت مرضا عضالا.

حدث ما رجوته فقالت بطلتي: أعيدي رواية قصتك يا هويدا، أريد معرفة ما فاتني منها، وإذا ما كانت تستحق الضحك.

أسندت هويدا التي كانت هي صاحبة البشرة مجهولة اللون، ظهرها إلى الكرسي بغرور وارتسمت على وجهها ابتسامة اعتزاز بالنفس وبدأت تروي: كنت وزوجي في فترة الخطوبة عندما حضر ذات يوم إلى منزل أسرتي، ففتح له أخي الصغير الباب فدخل إلى الصالة دون أن أنتبه إليه، فرآني واقفة في الشرفة أضحك بصوت مجلجل، وفور شعوري بوجوده ابتسمت وتحركت إليه، فقام دون مقدمات بصفعي وقال لي بغضب: تذكري هذه الصفعة جيدا حتى لا تفعلي هذا مرة أخرى فوعدته بالطاعة.

عواطف ببعض الخبث: وهل أطعتِ يا هويدا؟!

عادت هويدا للضحك وضحكت معها بعض الجالسات وصمت البعض الآخر.

أحسست عندها أني خرجت من الواقع، تجمدت من حديثها وكأن زوجها صفعني أنا أيضا، وبأنها قد صفعتني بدورها ثلاث مرات، مرة بسبب ردة فعلها، ومرة لأنها تزوجته، والمرة الثالثة لأنها تحكي القصة بفرح وبفخر، وهناك

صفعة رابعة تلقيتها ممن شاركنها الضحك، وصفعة خامسة ممن صمتن وكانت أمي من بينهن.

كم كنت أتمنى أن أنهض وأن أمسك بكأس الماء الذي أمامها فألقي بما فيه على وجهها، ثم أبدأ في مسحه فأعرف لونه ثم أسألها: ما الذي يضحكك في الذي حدث يا امرأة؟ هل أنت مجنونة؟ !!

غادرنا، وبقيت صامتة طوال الطريق، وأمشي ببطء وتثاقل لدرجة أن أمي كانت تجرني جرا وقد أمسكت بيدي وبيد أخي.

نظرت إلي باستغراب وسألتني: ما بك؟ لم تنطقي بكلمة منذ خروجنا على غير عادتك!

أنا: لا شيء، أحس بالنعاس فقط.

ـ سنصل منزلنا بعد قليل.

كان ما حدث يعاد مرارا وتكرارا في خيالي، ولأول مرة في حياتي أجد صعوبة في النوم، وفي الصباح غادرت سريري بسرعة على أمل أن أجد أمي مستيقظة، وعندما شاهدتها في المطبخ تقدمت منها وقلت لها بجدية وانزعاج وصوت عالٍ: أمي.

نظرت إلي وقد تفاجأت بي، وقالت ببعض القلق: منذ متى تستيقظين باكرا يوم الجمعة؟! هل أنت مريضة؟

ـ لا، أريد أن أسألك عن شيء هام.

ـ هل غسلت وجهك؟

ـ ليس بعد.

ـ اغسليه أولا، ثم تعالي واسألي.

بتصميم: سأسأل أولا.

نظرت إليَّ باستغراب واهتمام: اسألي.

ـ لماذا كانت هويدا بالأمس تضحك على قصة ضرب خطيبها لها، ولّما تزوجته وقد ضربها؟! ولماذا ضحكت بعض النساء أيضا، ولم سكت أنت ولم تقولي أية كلمة لهذه المرأة المجنونة؟!

ـ سكتُّ لأني لم أجد كلامًا أقوله، وأولا وأخيرًا لا شأن لي، أما سبب الضحك فلا أستطيع شرحه لك الآن وحتى لو فعلت فلن تفهميه، اهدئي واذهبي لغسل وجهك، ولا تصفي أحدا بالجنون مرة أخرى.

أثناء تنفيذي أمر أمي بدأت أفكر في المستقبل، وفي اليوم الذي سأُخطَب فيه، وكم خشيت من أتعرض للضرب قبل الزواج وربما بعده أيضا.

ركضت حيث أمي وقلت لها والجدية لم تفارقني: لقد قررت أن أكتب في عقد الزواج، إنه يحق لي الوقوف في الشرفات والضحك بصوت عالٍ في منزلي وفي منزلنا هذا أيضا وفي أي وقت، هل هذا واضح؟

أمي: واضح تماما.

قالت ذلك بهدوء وقد انهمكت في إعداد الطعام، وعندما لم تلتفت إليَّ غادرت إلى غرفتي، وبعد قليل استيقظ أبي ودخل حيث هي، ثم سمعتهما يضحكان، وكنت متأكدة أنهما يفعلان بسبب ما قلته لأمي.

ضايقني أن يكون ما يزعجني مصدر ضحك لهما، فلمعت في ذهني فكرة أخرجت على إثرها ورقة وقلما.

لقد قررت كتابة كل ما يخطر لي من شروط للزواج، ولن أخبر أحدا بها حتى أمي فهي تخبر أبي بكل شيء، عاهدت نفسي على السرية وهي أمر من حقي؛ فهذا عقد زواجي أنا، كما أن الجميع سيعرف بها في وقتها.

***

٧ـ فارس الأحلام

كان التخرج في الجامعة هو هدفي الثاني عندما التحقت بها، أما الأول فكان العثور على فارس الأحلام، ولم يكن هناك مكان مناسب لما أريد أكثر منها، لقد كنت أؤمن كثيرا بفكرة وجوده.

التقيته في بداية سنتي الثانية أثناء ذهابي إليها، وتوقع بسبب الكتب التي كان يحملها معه دوما أنه طالب مثلي، ولكنه على الغالب ليس معي في نفس الكلية فهي أول مرة أراه فيها.

بدأت أنظر إليه بتركيز؛ بسبب نظرات الإعجاب التي كان يوجهها نحوي وبسبب ملاحقته لي، إذ كان يمشي دوما بمحاذاتي على الرصيف المقابل، وهذا جعلني أظن أنه يسكن بالقرب مني.

كانت فيه أكثر من تسعين في المئة من مواصفات فارس أحلامي الشكلية التي لطالما رسمتها في خيالي.

استمر المشي والنظرات لمدة أسبوع، لم أكن أستوعب بل لم أكن أسمع فيه من المحاضرات إلا بعض الكلمات، فأنا طوال الوقت مُطلِقة العنان لتفكيري في الفارس، وحتى لا ينتبه لي المُحاضر كنت أختار الجلوس في الصفوف المتوسطة بين التلاميذ ضخام القامة.

أما في المنزل، فكنت أختار الشرود أمام كتبي؛ حتى لا يلاحظ والداي شيئًا، والسعادة التي كانت بادية عليَّ كانت تسعدهما.

انتقل الفارس لمرحلة جديدة فبدأ يمشي خلفي على نفس الرصيف ويلقي ببعض كلمات وجمل الغزل على مسمعي، ومع أنها كانت تقليدية وحفظها الجميع منذ سنين بل منذ أجيال، إلا أن وقعها كان جميلا وهي موجهة لي ومن شخص يعجبني جدا.

قررت أن أكون فتاة عاقلة ومتزنة، فتظاهرت بعدم الاهتمام به أبدا وبأن كلماته لا تهزني بل وبأني بالكاد ألاحظه، كنت أخفي سعادتي العارمة من تصرفاته.

تلك السعادة التي كانت تغادرني عندما كان يختفي داخل أسوار الجامعة.

كنت كل يوم أقضي ساعة أو اثنتين أهتم بمظهري؛ حتى يراني بكامل أناقتي.

أسوأ الأيام هي التي لا أراه فيها، أبقى شاردة ومتضايقة طوال الوقت، وأتساءل: هل هو مريض يا ترى؟ هل ترك الجامعة؟ هل غادر الحي؟ هل هاجر؟

كان يظهر معظم أيام الأسبوع، وكم كان من المتعب إخفاء ابتسامتي عندما كان يتقدمني ويوجه نظراته إلي، وعندما كان يأتي إلى جواري كنت أغادر إلى الرصيف المقابل قبل أن يتسنى له إكمال جملة واحدة.

كان تظاهري بإهماله أمرا متعبا، لقد أحسست أني في امتحان صعب جدا يجب عليَّ اجتيازه، وأخيرًا فهمت جملة مدرسة العلوم التي كانت دائمًا ما ترددها عندما تجد بعض الفتيات متأففات من بعض التجارب: الدرس النظري مختلف عن العملي، كم كانت محقة تلك المعلّمة!

سمعت كثيرا من القصص عن شباب خدعوا الفتيات وتلاعبوا بهن بالكلام الجميل، وهو أمر لم أكن سأسمح بحصوله معي أبدا، سأحمي نفسي من هذا المصير، لن تؤثر في الكلمات المعسولة والوعود الجميلة إما زواج وإما لا.

أخبرت صديقاتي عما يحدث فوافقنني فيما أفعل ورأين بأن لا أبادر بأية حركة تجاهه ووعدنني بأن يشددن من أزري وبألا يسمحن لي بالضعف أمامه؛ إذ علي اختبار جديته فربما

لا أكـون بالنسـبة إليـه أكثـر مـن فتـاة جميلـة صادفهـا في طريقـه.

بعـد شـهر مـن هـذه الملاحقـة الجميلـة، توجهـت إلى محـل للعصـير بعـد خروجـي مـن الجامعـة، وبينـما أنـا جالسـة إذا بـه يدخـل إليـه ويجلـس بجانبـي ويعرفني على نفسـه مبـاشرة وبكل هـدوء: عـادل، في السـنة الأخـيرة مـن كليـة الهندسـة، أدرس الهندسـة المعماريـة.

بقيـت صامتـة ولكني ابتسـمت لـه، فسـألني: هـل لي بمعرفة اسمك ؟

ـ هالة، في السنة الثانية من كلية التجارة، إدارة أعمال.

ـ أحاول لفت انتباهك منذ شهر.

تظاهـرت بالاسـتغراب مـن هـذا الـكلام وتظاهـرت بعـدم الاكـتراث: لم أنتبـه لـك.

ـ لذلك قررت التحدث معك، فأنا معجب بك جدا.

أحسسـت بخجـل شـديد فبقيـت أنظـر لـلأرض؛ خشـيت النظـر إليـه فتفضحني نظـراتي وينهار جهـدي في الأيام السـابقة.

ـ أرى أنك الفتاة التي أبحث عنها.

نظـرت إليـه وابتسـمت ثـم نظـرت لـكأسي وسـألته ببعـض الاسـتغراب: تبحـث عنهـا؟!

ـ نعم، أنا قصدي شريف، أريد الزواج.

كلمة زواج فاجأتني بشدة فكدت أن أختنق بالعصير، لقد أتى الأمر بسرعة لم أتصورها، فنظرت إليه وكلي دهشة، فقال وكأنه يقرأ أفكاري: لماذا اندهاشك؟ أنا أؤمن بأن الحب عليه أن ينتهي بالزواج.

كم كانت رائعة كلمة حب هذه، ولكن لم أكن لأصدقها بهذه البساطة، فسألته: لقد قلت إعجاب منذ قليل.

عادل: الإعجاب بداية له، ما رأيك أن نقضي هذه السنة في توطيد معرفتنا ببعضنا البعض.

أخبرت صديقاتي وأخرجت لهن لساني؛ فلقد كنت محقة وهن على خطأ، مازال فرسان الأحلام موجودون.

أمضينا العام كما اتفقنا، كنا نذهب إلى الجامعة ونعود منها سويا، نتناول طعام الغداء فيها معا، نتحدث بالساعات على الهاتف، كان أيضا يساعدني في دراستي قدر الإمكان، عرفنا عن بعضنا البعض كل شيء.

كنت أطير فوق السحاب بهذا الحب والاهتمام، وعند اقتراب نهاية الفصل الثاني، أبدى رغبته بأن يكون الزواج فور تخرجه، فوالداه ميسوران ويستطيعان التكفل بكل شيء، أما الوظيفة فهي تنتظره في مكتب والده الخاص، عندها قلت

لـه: لا مانع لديَّ، سـأكمل دراسـتي بعـد ذلك، وسـأقنع والداي بالأمر.

ذات مـرة سـألته: مـاذا سـنفعل، لـو اعترضـت أسرتي أو أسرتـك عـلى زواجنـا؟

قـال لي بـكل ثقـة: لو وقـف العالم كلـه ضدنا وتحدانـا، تأكدي أني سـأفعل المسـتحيل حتى نتزوج.

أسـعدني إصراره، ومـع أني لم أكن أرى سـببا يجعـل العالم يترك مشـاكله ويقـف أمـام زواجنـا، إلا أن فكـرة التحـدي بحـد ذاتها راقتنـي جدا.

أخـيرًا انتهـت السـنة الدراسـية، وأصر والداي على السـفر إلى السـاحل؛ فسـألته: هـل أخبرهما عـن علاقتنا؟

ـ ستشغلين بالهما وتفسدين متعتهما بالتفكير.

ـ ربما يوافقان على إلغاء الرحلة من أجلي.

ـ ليـس عـدلا في حقهـما، إنهـا فرصـة لترتاحـي مـن عنـاء الامتحانـات، كـما أن والـداي أيضـا يرغبـان بإجـازة، لنجعـل الأمـر فـور عـودة الجميـع.

كنـت سـعيدة جـدا في هـذا الشـهر، كان البحـر أجمـل مـن أيـة سـنة مضـت، الـشيء الوحيـد الـذي كان ينغـص سـعادتي

هـو شـوقي إلى عـادل، فلـم يكـن الهاتـف ليحـل محـل رؤيتـه.

أمضيـت الوقـت في التفكير في الـزواج، فبدأت أضـع الأفكار لـكل صغـيرة وكبـيرة، وقـررت أن أقـترح على عـادل بـأن يكون حضورنـا وانصرافنـا ليلـة الزفـاف عـلى درَّاجتـه النارية، لقـد كانـت تروقنـي فكـرة تلاعـب الهـواء بشـعري وبالطرحـة بينـما أحتضنـه بذراعَـيْ.

عندمـا عدنـا مـن السـاحل أخـبرت والـداي بـكل شيء، فاعـترض أبي بشـدة قائـلا: لا زواج قبـل تخرجـك في الجامعـة.

برجاء وخجل: أعدك أن أتخرج وبتفوق أيضا.

قبل أن ينطق أبي تدخلت أمي قائلة: ليس من المعقول أن نجعل ابنتنـا تخسر عريسًـا مناسـبًا، أمـر الدارسـة محلول سـنظل نتابعها.

نظـر أبي إليَّ وإلى أمـي، ثم قال مستسـلما: حسـنا، حـددي معه موعدا.

كـدت أطـير مـن السـعادة، فطـرت إلى هاتفـي واتصلـت بـه فلم يجـب، فعـاودت الاتصال عـشرات المرات، وقمت بإرسـال الكثـير مـن الرسـائل، ولكـن دون جـدوى، فأخبرت والـداي بما حـدث والدمـوع لا تفـارق عينـاي، فقـال أبي: ربـما غـير رأيـه، وربـما رفـض والداه.

باعـتراض وثقـة شـديدين: لـن يفعـل يـا أبي، لقـد أقسـم لي، لقـد وعـدني بأن يتحـدى العـالم وبأن يفعل المسـتحيل مـن أجلي، حـدث له مكـروه ولا شـك.

نظـرت أمي بلوم إلى والدي، ثم هدأت من روعي وطلبت مني الانتظـار للغد، وقالت لي: هناك أسـباب كثيرة تجعل الشـخص لا يجيـب على هاتفـه، لا داعي لهذه الأفـكار والظنـون والفزع، نامي الآن وعـاودي الاتصـال به غدا، وأنـا متأكدة بأنه سـيفعل قبلك.

لم أنـم طيلـة الليـل لحظـة واحـدة، وكيـف لي أن أفعـل والقلق يـكاد يفتـك بي؛ فمنـذ أن تعرفـت عليـه وحتـى قبيـل عودتنـا إلى المنـزل لم أكـن أتصـل بـه إلا وأجابني!

إيـماني بـأن خطبـا أصابـه جعلنـي لا أتوقـف عـن الاتصـال طـوال الليـل حتـى بعـد أن أصبـح هاتفـه مغلقـا، عـلى أمـل أن يجيـب أحـد ممـن حولـه عـلى الأقـل.

في الصبـاح وصلتنـي رسـالة منه تقـول: عيشي حياتك بشـكل طبيعـي، ولا تتصلي بي مجددا، انسـيني.

فرصة سعيدة.

المهندس: عادل

***

٨ـ عود الكبريت

منذ أن تفتحت عيناي في هذه الدنيا، وأنا أحب أحاديث الرجال، وأكون سعيدة جدا، إذا تركني أبي أجلس معه هو وأصدقاؤه، إذ لم تكن حوارات النساء تجذبني؛ فهي لا تخرج عن الأعمال المنزلية والزواج والإنجاب ومشاكل الأبناء، إلا نادرًا، أما عالم الرجال فكان العالم الواسع الذي فيه كل شيء، كان يستهويني جدا.

ولكن الأيام تمر، والصغيرة تكبر، وهنا بدأ وجودي الدائم بجانب والدي يزعجه، فأخذ الأمر يتقلص بالتدريج.

ولكني لم أكن أستسلم، فعندما لا يكون المكان مكتظًا، أتسلل وأجلس، فإذا تركني والدي كان بها، وإذا نظر إلي شزرا نهضت، فألجأ للجلوس بجوار الباب من الخارج، فأكون معهم ولا أكون.

كنت قد بلغت الثالثة عشرة من العمر تلك الليلة التي لا أستطيع أن أنساها، عندما سمعت هذه الجملة في حوار ساخن

تميز بارتفاع الأصوات وتداخل المتكلمين، وكاد أن يتحول إلى شجار.

كان محوره البنات والأولاد والأخلاق، قال أحدهم: شرف الفتاة مثل عود الكبريت، لا يشتعل إلا مرة واحدة.

كان وقع الجملة عليَّ قويا، لدرجة أني لم أستوعب باقي الحديث، وأخذت هذه الجملة تتردد في ذهني مرارًا وتكرارًا.

بقيت يومين أحاول ربط البنت بعود الكبريت، واعتبرته مفتاح اللغز، وشككت بأن الأمر له علاقة بأكثر شيء قد وضع حوله تكتيم إعلامي في المنزل وعند الجيران بل وفي الوطن العربي كله.

خشيت بالطبع أن أسأل أمي، ولم أكن لأفكر مجرد تفكير في سؤال أبي؛ إذ كنت أخشى أن يُسفِر هذا عن منعي من الذهاب إلى المدرسة ومنعي من الطعام، وربما يصل الأمر إلى منعي من دخول الحمام؛ لتجرئي على دخول هذه المنطقة المحرمة، فقررت اكتشاف الأمر بنفسي، اعتمادا على عود الكبريت، مع أني أخاف من أي شيء له علاقة بالنار والاشتعال.

بعد شهر من التفكير أعلنت الاستسلام، وقررت سؤال أمي عن معنى الجملة، وليحدث ما يحدث.

كانت سعادتي عظيمة عندما ابتسَمَت، فتعلقت عيناي وأذناي بشفتيها، وأخيرًا فتحت فمها، وقالت: عندما تكبرين ستفهمين.

وقعت الإجابة عليَّ كالصفعة، وسألت نفسي: هل جمعت شجاعة الحي كله، لأسمع هذه الإجابة؟!

اعترضتُ وقلت لها: هذه إجابة لا تسمن ولا تغني من جوع، ألن تشرحي لي معنى المثل؟

ـ لن أفعل.

ـ لماذا؟

صمتت أمي، فرأيت من المناسب جدًا وقد مر السؤال الأول بسلام وتهيأ الجو، أن أسأل السؤال الآخر، على أمل أن يساعد على حل لغز الأول: ماذا عن شرف الولد، أهو عود كبريت أيضا؟

ابتسمت أمي مجددًا، وقالت: لا تسألي مرة أخرى، ولا تفكري كثيرًا في الأمر.

غادرت أمي المكان، تاركة إياي أضرب أخماسًا في أسداس.

أبيت أن أعلن الاستسلام، فخسارة معركة، لا تعني خسارة الحرب.

مـن تلـك اللحظة بـدأت الدراسـة، والفحـص، والتمحيص، واسـتخدام الوسـائل البوليسـية؛ لاكتشـاف ما لا بد من اكتشافه، فبـدأت أراقـب أمـي في المطبـخ، وأتفحـص أعـواد الكبريـت، واسـتمرت هـذه المراقبـة المكثفـة ثلاثة أشـهر.

كانـت النتيجـة التـي توصلـت إليهـا، اعتـمادًا عـلى الملاحظـة الدقيقـة، أن أمـي أحيانـا، تشـعل نفـس العـود أكثـر من مـرة من النـار المشـتعلة أصـلا، فقلـت لنفـسي بغيـظ: ممـا لاشـك فيـه أن عمـر بطـلي الصغـير قصـير، ولكنـه يشـتعل أكثـر مـن مـرة، نعم يشـتعل، هـل مـا سـمعته تلـك الليلـة كان خطـأً؟!

الحـيرة تـزداد، ولا أسـتطيع بالطبـع سـؤال أيـة معلمـة في المدرسـة؛ خوفًـا مـن ردة فعلهـن، كـما أني أقنعـت نفـسي بأنهن لا يعرفـن الإجابـة؛ فهـن أكثـر بـراءة مـن ذلـك.

ولم أكـن أسـتطيع مناقشـة الأمـر مـع صديقـاتي أيضًا؛ خشـية اتهامـي بقلـة الأدب، وربـما يحدث مـالا تحمد عقبـاه، إذا ما قامت إحداهـن بتـصرف متهـور، وأخبرت أمهـا عن السـؤال، وجاءت أمهـا وأخـبرت أمـي، عندها سـوف أحترق أنـا بهذا العـود الذي أصبحت حيـاتي تتمحـور حوله.

أمـام هـذه الحـيرة قـررت إهمـال الموضـوع، مؤمنة بـأن الأيام تسـتطيع اكتشـاف أصعـب الأمور.

بعد ستة أشهر، جاء الفرج، فذات يوم دخلت على أخي الذي يكبرني بثلاث سنوات غرفته، دون أن أطرق الباب، فصرخ بي بعد أن وضع الكتاب الذي كان يقرأه إلى جانبه البعيد عني، وقال: طلبت منك أكثر من مرة أن تطرقي الباب، فلم نعد صغارًا حتى ندخل على بعضنا البعض دون استئذان.

أنا: آسفة، لقد نسيت ولكن الغداء جاهز، وأنا أتضور جوعا.

ـ سآتي، بعد لحظات.

خرجت من المكان، وقد ساورني الشك بأن اللغز ربما سيُحَل على يد هذا الكتاب، أو سيكون مُحتوياً على دليل قوي في القضية، أو على الأقل يحتوي على شيء لا أعرفه عن عالم الرجال، ولكن متى سأضع يدي عليه؟

لعدة أيام أصبح أخي هو المُراقب بدل العود، وعندما تأكدت من مكان الهدف، قررت أن لا مزيد من الانتظار، عليَّ الحصول عليه مهما كلف الأمر وبأسرع وقت.

مباشرة وضعت جدولا بمواعيد مغادرة أخي المنزل، ومعرفة أي منها يوافق غياب أبي أيضًا، وعلى أمي أن تكون خارج المنزل هي الأخرى، أو على الأقل يجب أن تكون في

المطبخ أمام تلٍّ من الأطباق، أو تُعِد طعامًا معقدا في نفس الوقت.

دقت ساعة الصفر، ووقع الكتاب في يدي، فبدأت أقرأ مقتطفات منه بأقصى سرعة، مع دقات قوية ومتسارعة من قلبي، ومع عرق يتصبب من فكرة أن يتم القبض عليَّ متلبسة بالكتاب المحرّم.

كانت عيناي تتنقل بسرعة فائقة بينه وبين باب غرفة أخي، حتى أصبت بالصداع وبالدوار.

أخيرا عرفت قصة عود الكبريت المجيد، فبينما شرف الفتاة في المجتمعات العربية مثله، لا يشتعل إلا مرة واحدة، يكون شرف الولد مثل الولاعة يشتعل مرارًا وتكرارًا، مرا..... وتكرا.....، ولدى هذه الولاعة أيضا القدرة على التعبئة أكثر من مرة من محطة الوقود.

***

٩ـ البخيل، والأنثى

«لقد قدمت استقالتي».

هـذا مـا كانـت تقولـه لمـن يسـألها عـن سـبب توقفهـا عـن الذهـاب إلى العمـل، بينـما الحقيقـة أنهـا طُـردت منه، ومـع أنها لم ترتكـب مـا يسـببه إلا أنهـا لم ترد إخبـار أحـد بالحقيقـة، وهي أن المديـر العـام للشركـة قـام بطـرد مدير القسـم الـذي كانـت تابعة لـه وطـرد كل مـن توظـف عـن طريـق مديـر القسـم هذا.

مـا زاد مـن صعوبـة مـا حـدث هـو التوقيـت، فلـم يتبقى على دخـول شـهر رمضـان إلا أسـبوعين فقط.

ألا تجـد (عـزة) عمـلا خـلال هـذه المـدة، معنـاه أنها سـتعيش في بطالـة ربـما تسـتمر لشـهرين، فالناس تأخـذ وقتـا طويلا حتى تسـتعيد نشـاطها بعـد العيد، وهـو مـا كان مرفوضـا ومحبطا جدا بالنسـبة إليها.

بعـد بحـث حثيـث في الإعلانـات اتصلـت بشركـة تطلـب سـكرتيرة خاصـة، وتم تحديد موعـد لها لإجراء مقابلة شـخصية.

ذهبت وكلها حماس، وكادت تعود أدراجها؛ بسبب ما واجهته من صعوبة في الوصول إلى العنوان؛ إذ كان في حي قديم يحمل اسما صعبا.

كان مقر الشركة مبنى قديما جدا يتكون من طابقين ربما تجاوز عمره السبعين عاما.

قابلت المدير الذي هو صاحب الشركة في نفس الوقت، وعندها قاومت رغبتها في الضحك؛ فعمره هو الآخر من عمر المبنى أو ربما أكثر، ولكنه مازال يتمتع بصحة لا بأس بها، ومن خلال الكلام معه وجدته يتمتع بروح نشيطة ومُحِبَّة للعمل وهو ما أكبرته فيه.

بعد بعض الأسئلة وافق على عملها معه بدءا من الغد، وعرض عليها ضعف راتبها الأول، بالإضافة إلى سيارة تتولى أمر توصيلها من العمل وإليه.

يبدأ العمل في الساعة الثامنة صباحا وينتهي في الخامسة مساءً وهناك ساعة للراحة وللغداء.

عادت سعيدة إلى المنزل، وأخبرت أسرتها بأن العمل أكثر من مناسب من كل النواحي، فهنأها الجميع راجيا أن يكون المدير أكثر عدلا ممن سبقه.

انطلقت عزة إلى العمل الجديد، فاستقبلها موظف قد كلفه المدير بأن يقوم بتدريبها، عرفت منه أنها المرأة الوحيدة في هذه الشركة، وبأن مكتبها ومكتب المدير فقط هما الموجودان في الطابق الثاني، بينما كل الموظفين اللذين لا يزيد عددهم عن أصابع اليد موجودون في الطابق الأول.

لم يأخذ تدريبها مدة طويلة أو عناءً؛ إذ كان العمل المنوط بها سهلا جدا، وأثناء ذلك سألت: متى يصل المدير؟

قال الموظف: توقعي حضوره في أي وقت ، بل وغيابه يوما كاملا أو أكثر.

مر عليها الأسبوع الأول بطيئا جدا ومملا، فكل ما تُكلف به من عمل لم يكن يستغرق ساعة واحدة، وسألت نفسها عن إمكانية احتمالها البقاء على هذا الوضع بشكل يومي، ولكنها لم تكن لتفكر في الاستقالة؛ أمام وضعها المادي والمعنوي، فشجعت نفسها بأن الملل الذي في المنزل لا يقل عن الذي هنا، ولكنه دون مال.

لم تكن تستطيع أن تُمضي الوقت في تصفح الإنترنت؛ فالمدير فقط من يعرف رقمه السري، فكان يستدعيها إلى مكتبه إذا أراد منها طباعة رسالة إلكترونية له، كان يرفض أن ينشغل الموظفون عن العمل، كما أن معظم تعاملات الشركة لم تكن تتم من خلاله.

كان دخل الشركة جيدا جدا، فبدا لعزة أنه من الغريب عدم انعكاس ذلك عليها، فالأثاث والمعدات قديمة، ولكنها سرعان ما عزت ذلك إلى حب المدير للذكريات.

أما ما لم تجد له سببا وكان غريبا ومضحكا في نفس الوقت، هو عدم وجود صابونة أو مناديل في الحمامات، وعدم وجود مشروبات مجانية للموظفين كما تفعل معظم الشركات، فكان على كل موظف أن يوفر لنفسه ما يحتاج، وعلى الجميع الانتباه للمصابيح وللأجهزة الكهربائية فممنوع أن يعمل شيء ليس له حاجة، ومن الممكن أن تسمع صراخ المدير على أحد ما؛ بسبب نسيانه صنبور الماء مفتوحا.

كما أنه خصص غرفة كاملة لتخزين الأجهزة المعطّلة رافضا إصلاحها أو التخلص منها فربما يحتاجها يوما ما، والأدهى من هذا كان تخزين عبوات حبر الطابعات الفارغة.

هنا بدا لعزة بما لا يدع مجالا للشك بأنه رجل بخيل، فقالت لنفسها دون اكتراث: ربما البخل هو من أوصله لأن يكون صاحب شركة، فمن الطبيعي أن لا يتنازل عن الطبع الذي حقق له ثروة، المهم هو حصولي على مرتبي كاملا في وقته، ولكن سرعان ما أقلقتها فكرة تأخيره أو الخصم منه على أتفه المخالفات التقشفية المتبعة، فسألت موظفا أكد لها أن الرواتب تصرف في موعدها وأن الخصم لا يتم إلا لأمر جلل.

أخـذت عـزة تفكـر في طريقـة تكـسر بهـا الملـل الذي تعيشـه، فقـررت قـراءة القـرآن بـما أن رمضـان قـد بدأ.

أثنـاء ذلـك دخـل عليهـا المديـر دون طرق البـاب كعادتـه، إذ كان يتسـلل مثـل اللصـوص، فقـال لهـا: ممنـوع قـراءة أي شيء حتـى القـرآن في وقـت العمـل.

قالـت لـه: ولكنـي أبقـى لسـاعات دون أن يكـون لـديَّ مـا أقــوم به.

ـ هذا ليس عذرا.

لم تكـن تسـتطيع النقـاش الـذي لم يكن ينتهـي أبـدا لصالحها؛ إذ كان عنيـدا سـليط اللسـان، وكان عمـره يجبرهـا عـلى احترامه.

اجتمـع الملـل والصيـام معـا ممـا جعـل السـاعات تبـدو بـلا نهايـة، فلـم تجـد مفـرا مـن التحايـل، فمـرة تخفـي المصحـف بين أوراق العمـل، ومـرة تخفـي قصـة بـين طيـات ملابسـها، ولكـن الخـوف الـذي كانـت تحس بـه مـع كل حركـة أو خطوة تسـمعها ظنـا بأنهـا مداهمـة منـه أرهـق أعصابهـا فتوقفـت.

لم تكـن حتـى تسـتطيع الوقـوف أمـام الشـباك فتراقـب حركة الشـارع؛ فالوحيـد في غرفتهـا مقابـلٌ لعـمارة أخرى.

بعد تفكير، وجدت أمرا آخر مفيدا ومسليا إلى حد ما، بدأت تترجم بعض الخطابات الخاصة بالشركة، ولكن هذا لم يكن كافيا أبدا، كما أن استخدام القاموس لمدة طويلة كان مرهقا.

لم يكن النزول إلى الطابق الأول أمرا ذا فائدة كبيرة في محاربة الملل؛ فالموظفون مشغولون طوال الوقت إذ يقوم الواحد منهم بعمل اثنين تقريبا، حتى استقبال العملاء كان يجري هناك، بالإضافة إلى أن المدير نظر إليها بانزعاج عندما رآها معهم ذات مرة، وأصدر لها أمرا مباشرا بعدم مغادرة مكتبها أبدا.

أمر آخر أزعجها وجعلها تلزم مكانها حتى عندما يكون المدير مسافرا، هو نظرات بعضهم الغير مريحة لها وكلامهم المقتضب معها، وهي الانطوائية التي لا تجيد فتح حوارات مع من أمامها خاصة الجنس الآخر.

مع الأيام وجدت حلاً أفادها إلى حد كبير، أحضرت (راديو) صغيرا ثبتته في ملابسها بينما ثبتت سماعته على أذنها مختفية تحت شعرها، لقد أصبحت خبيرة في التمويه، ولن تنسى أبدا ذلك اليوم الذي كانت تستمع فيه إلى برنامج بينما دخل المدير وأخذ يتحدث معها فلم تفهم الكثير مما قال؛ وكادت تضحك بسبب تداخل كلامه مع كلام المذيع، ولم تكن

تستطيع أن تغلق الجهاز ولا أن تبعد السماعة عن أذنها ولا عيناها عن المدير الذي بدا أن كلامه لن ينتهي.

عندما غادر جلست عزة على كرسيها تتنفس الصعداء وقررت التوقف عن هذه الحيلة، وعادت لإخفاء القصص والمجلات في كل مكان لا تصل عينا المدير إليه، كما بدأت تتصفح ملفات الشركة القديمة لتفهم أكثر عن طبيعة العمل، فربما هي تعمل في منشأة سرية دون أن تدري.

راق هذا التصفح المدير كثيرا، وراقه أيضا أنها أصبحت مدبرة في كل شيء، الأوراق والأقلام والأنوار، وفي تشغيل الأجهزة، وكذلك قيامها بتنظيف مكتبها وعدم انتظار الفرَّاش ليفعل وإحضارها معطرا للجو على حسابها.

كان تدبيرها في الشركة أمرا مفهوما، ولكن الغريب أنها أصبحت كذلك في المنزل أمام استغراب أفراد أسرتها.

عندما حان موعد المرتب الأول، استدعاها المدير وقال لها: ساعات العمل هنا في رمضان أقل منه بساعتين في الأشهر العادية؛ لذلك سيتم خصم جزءًا من المرتب مقابل الوقت المحذوف، وهو أمر نسيت إخبارك به أثناء المقابلة الشخصية.

قالت عزة: كما تشاء.

عندما عادت إلى مكتبها شردت بعيدا وبدت عليها الحيرة، لم يكن هذا بسبب بالمال المخصوم بل بسبب السؤال الذي كان يطرح نفسه عليها بقوة منذ التأكد من بخل المدير.

كيف يضع رجل مثله موظفة تتقاضى أجرًا دون أن تقوم بعمل يساويه ويستطيع أي موظف القيام به بسهولة؟!

إن المتوقع منه أن يكلفها بعمل يستحق ضعف الأجر وربما ثلاثة أضعاف.

لم تفكر عزة في الإجابة وربما فعلت ووجدتها ولكنها تهربت منها؛ فلقد بدت سخيفة، ولكن الأيام كانت تقلل من درجة هذا السخف؛ خاصة وأنه لم يكن هناك أخرى مقنعة، ومما عزز صحتها ما كانت تسمعه من زملائها عن عدم الحاجة إليها، وذلك في المرات النادرة التي كان أحدهم فيها يزور مكتبها .

قال لها أحدهم ذات مرة: بالتأكيد تحسين بالملل.

عزة: هذا صحيح، ولكنه لا بد وأن رمضان هو السبب، بالتأكيد سيكون هناك الكثير من العمل بعده.

ـ أعمل هنا منذ خمس سنوات، العمل دائما على هذه الحال.

لم تجد عزة أمامها إلا التبسم والصمت، وعندما وصل زميلها إلى الباب خارجا التفت إليها وقال: لقد سبقتك اثنتان لم تحتملا الوضع وغادرتا.

غادر مكتبها فأحست بضيق شديد؛ إذ عادت إليها تلك الإجابة، كما بدأت تتخيل الأقاويل التي من الممكن أن يكون الموظفون يتهامسون بها عنها وعن العجوز، ولكن الأمل سرعان ما دب في نفسها؛ فربما ستحدث تغييرات في الشركة هذا العام، وربما يخطط المدير لإعادة هيكلتها مما حدا به إلى تعيينها، خاصة وأنه اشترى مكتبا جديدا لها، وربما وربما.....

شعرت ببعض الارتياح من هذه الخواطر، وأراحها أكثر احتمال كون هذا الموظف كاذبا، كما أن الهمسات التي تزعجها مجرد أفكار لم تثبت لها.

رفضت عزة فكرة سؤال غيره عن وضعها حتى ذلك الموظف اللطيف الذي دربها، خوفا من ظنونه أو من ردة فعل المدير لو عرف، خاصة أنها لم تكن تعرف من يحبها ومن يكرهها في هذا المكان، وربما لم تفعل خوفا من تأكد ظنونها هي .

كل شيء حولها أصبح ظنونا، الشيء الوحيد المؤكد كان حاجتها إلى العمل.

في آخر يوم من رمضان استدعاها المدير وقال لها: إنك متهاونة في مظهرك العام، سوف أدرس معك بعد عودتي من السفر مسألة أناقتك.

صدمت عزة من كلامه فلم تجد إجابة، فأكمل: إنه كئيب، لا أرى داعٍ لارتداء الألوان الداكنة.

قالت: هل مظهري سيء إلى هذه الدرجة؟!

ـ ليس كذلك ولكن عليك مواكبة (الموضى) في ملابسك وفي لون شعرك أيضا.

اكتفت عزة بالإنصات، فأكمل: وعليك ارتداء أحذية بكعب عالٍ، فهي تجعل مشيتك أجمل، وضعي المزيد من الماكياج، فملامحك جميلة عليك إظهارها، وعليك خفض صوتك، ويجب أن يكون كلامك أكثر نعومة.

ـ متى ستسافر، ومتى ستعود؟

ـ الليلة وسأعود بعد أيام العيد، واطمئني سأحضر هدية لك معي.

ـ هذا لطف بالغ منك، تصحبك السلامة.

توجهت عزة ناحية الباب، وعندما فتحته، قال لها: تجنبي زيادة الوزن في أيام العيد، فأنت بحاجة لخسارة بعضه.

عـادت إلى مكتبهـا ولم تسـتطع أن تبعـد الإجابـة إياهـا عـن رأسـها هـذه المـرة والتـي كانت: لقـد وظفها هـذا الرجـل؛ ليرى أنثـى عندمـا يأتي إلى الشركـة، إن كبر سـنه لا يعني عـدم رغبته في وجـود نسـاء حوله.

قضـت عزة أيـام العيـد في مرح وسـعادة، خرجـت في نزهات وزيـارات كثـيرة، ضحكـت ولعبـت وأكلت الكثير مـن الأطعمة والحلويـات، فعلـت كل شيء أكثـر مـن أي عـام مـضى؛ حتـى تتمتـع بالطاقـة التـي تؤهلها بدء رحلـة البحث عن عمـل جديد.

***

١٠ـ إبريق من الشاي

هـي آخـر العنقود في تلـك العائلة الثريـة، أنجبهـا والداها بعد أربعـة ذكـور، وكانا قـد كبرا في العمـر، فحظيت بـدلال زائد.

كانـت جميلـة جـدا، الجميـع في قريتنـا ينتظـر المناسـبات التـي تذهـب إليهـا؛ لـيرى ملابسـها وزينتهـا وتسريحـة شـعرها، فكل شيء كانـت تنتقيـه بعنايـة وذوق.

كنـت أنـا مـن بـين المُنتظريـن أيضـا، فأراقـب حركاتهـا وسـكناتها، وأتفحـص كل شيء فيهـا، بـدءًا مـن رأسـها وانتهـاءً بحذائهـا، وكنـت أرجـو أن أكـبر بسرعـة وأن أكون جميلـة مميزة، يتسـابق الخاطبـون للفـوز بي مثلهـا تمامـا.

ذات يـوم كنـت جالسـة مع أمـي وأبي، الـذي قال: لقـد دعانا فـلان إلى حفل زفـاف ابنته.

أسـعدني الخـبر فقلـت: الحمـد لله أن حفـل الزفاف لـن يكون للأسرتـين فقـط مثـل حفـل الخطوبـة، أريـد أن أرى الجميلـة في الفسـتان الأبيض.

ضحكت أمي؛ إذ كانت تعرف مدى إعجابي بها، وسألني أبي: هل تجدينها جميلة أيتها الصغيرة؟ !

قالت أمي له: ومن لا يجدها كذلك؟ من الجيد أن الأسرتين اتفقتا أخيرا، فلقد كانتا في مد وجذب منذ اللحظات الأولى، لقد عرفت من مصدر موثوق أنها ستتزوجه رغما عنها، لقد ظن الكثيرون أن الأمر لن يكتمل.

أبي: هما من عائلة واحدة، والناس هنا تستحسن الأمر كثيرا.

ـ هل كان الاستحسان هذا سيتغلب لو كان العريس فقيرا؟

ابتسم أبي ببعض الخبث وقال: لن نعرف أبدا.

ـ لقد طلب والداها من القريب أشياء مرهقة ليتم هذا الزواج، مهر كبير، ومنزل مؤثث بأفخر الأثاث، وحفل زفاف تظل الناس تتحدث عنه لأشهر وربما لسنوات، وشهر العسل في دولة أوروبية.

ـ لا بد أنه يحبها كثيرا.

ـ لا أعتقد، فلقد رغب في الانسحاب أكثر من مرة؛ معتبرا أن طلبات والديها، خرجت من نطاق حب ودلال الابنة الصغرى إلى التحكم، والاستغلال.

ـ هو عصبي جدا.

ـ هـذا ممـا زاد الطين بلـة، ولكـن كان هناك دوما أخـوه الأكبر يحثـه عـلى الهـدوء ويضغـط عليـه؛ للرضـوخ لمـا يُطلـب منـه، والعريـس لا يسـتطيع أن يرفـض كلامـه.

ـ بالطبع، فهو ليس مجرد أخ، إنه من رباه بعد وفاة والديه.

ـ تقـول النسـوة، إن الأكـبر متضايـق بدوره مما يحـدث، وليس إصراره عـلى إكـمال الأمـر، إلا لأن لديـه ثـلاث بنـات في سـن الـزواج، ولحبيبـة الجماهـير أربعـة إخـوة، فـلا بـد أنـه يتطلع لأن يصبـح زيـت أهـل العـروس في دقيقهـم.

ـ هل تعتقدين أن والدي العروس لم ينتبها للأمر؟!

تبـادل أمـي وأبي ابتسـامة لم أكـترث لمعناهـا، فانتهـزتُ فرصة صمتهـما، وقلـت لهـما بتصميـم: سـنذهب إلى حفل الزفـاف مهما حدث.

جـاء اليـوم المُرتقـب، كان مـكان الحفـل جميـلا جـدا ضخـما وفخـما، توزعـت الـورود الطبيعيـة والأضـواء الملونـة في جنباتـه بإتقـان، طـاولات المدعويين وُضِعـت عليها مفارش حمـراء أنيقة، وفوقهـا تربـع شـمعدان أخـاذ، والكـراسي زُينـت بالدانتيـلا، أما (الكوشـة) فـكان تصميمها سـاحرا، وكأنها مأخـوذة من قصص الأمـراء والأميرات.

لعبت قليلا مع صديقاتي حتى يمر الوقت بسرعة، ريثما يصل العروسان، وهو ما كنت أنتظره على أحر من الجمر.

بعد ما يقارب الساعتين عرفت من حركة المقربين لنجمي هذه الليلة أنهما قد وصلا، فأسرعت كل منا حيث جلست أمها.

دخل الاثنان المكان، فتعلقت عيناي بالعروس، كنت أنظر إليها ككوكب في السماء يستحيل الوصول إليه.

كانت أغاني الزفة رائعة، كنت متأكدة بأنها وضعت خصيصا لها، تهادت في مشيتها، وكأنها نسمة هواء عليلة تمر، وها هي النسمة تجلس ويجلس العريس بجوارها.

كنت أتوق لرؤيتها عن قرب، أريد النظر إلى وجهها وشعرها وربما أتجرأ فألمس فستانها.

بعد تفكير قصير تسلحت بالعزيمة وبالإصرار، لأتغلب على خجلي الشديد والتصاقي الدائم بأمي، فغادرت مكاني دون أن أستأذنها وانطلقت إلى (الكوشة).

تقدمت بخطوات بطيئة وأنا أنظر حولي، وبدا لي أن الجميع ينظر إليَّ، ويعرف ما أفكر فيه، فدهشت من أنهم أبعدوا نظرهم عن العروس، فمن أنا أمامها؟!

أحسست بكره شديد تجاه الأسرتين، فلماذا كل هؤلاء المدعوين؟!

كانت أخت العريس تمسك بعصا رفيعة تبعد بها الأطفال عن المنصة التي وضعت عليها (الكوشة)؛ لتتمكن الشابات من الرقص، ولئلا يتحول المكان لملعب لهم، وكنت شبه متأكدة بأني ربما أحصل على ضربة أو اثنتين منها، إذا ما أردت الوصول حيث أريد، فنحافتي الشديدة وقصر قامتي، جعلاني أبدو في السابعة رغم أني كنت في الثانية عشر من العمر.

ولكن كل شيء كان عندي هَيناً؛ إذ لم يكن لدي أمنية أغلى من رؤيتها هذه الليلة منذ أن عرفت بأمر خطوبتها، فهل أتنازل من أجل ضربة أو أكثر؟!

وصلت إلى هدفي، وحصلت على أكثر مما أردت، إذ تمكنت من الوقوف بجانبها تماما.

وقفت مشدوهة، وأيقنت أنها القمر الذي دائمًا يقولون إنه ينزل من السماء أحيانا.

هي ممشوقة القوام لا هي بالطويلة ولا بالقصيرة، رشيقة، بيضاء البشرة كالثلج، جميلة تقاسيم الوجه، وجذابة هي منحيات جسدها، شعرها أسود وطويل وناعم، شدني جماله لدرجة أني رجوت أن تكون حياتي سوداء مثله.

كانت تتصرف وتنظر بخجل وبرقة.

شاهدت أيضا بوضوح الحلي الذي كانوا يتحدثون عن تنوعه وجماله وتكلفته، كنت أراها هي من تزينه لا العكس، جمال أصابعها أعطت الخواتم روعتها، ورشاقة معصمها جعلت الأساور ذا بهاء، وعنقها الطويل المصقول، كل عقود العالم تتمنى أن تلتف حوله.

كان فستانها رائعا ولامعا، كان الحفل جميلا، بل كل شيء في الحياة حتى السيئ منها، بدا في تلك الليلة جميلا.

مرت خمسة عشر عاما على هذا الأمر، وبقيت هذه العروس التي أنجبت أربعة أطفال، محط إعجاب الجميع في كل مكان تحل فيه أو تطل عليه؛ فهي ما تزال محافظة على جمالها ورشاقتها وأناقتها ونعومتها ودلالها، على عكس معظم المُتزوجات اللواتي أعرفهن.

كانت النساء أيضا، ما زلن يتناقلن أخبارها، فحياتها لم تسر كما تسير معظم الزيجات من حولي، وهذا أمر كنت أعرفه من أمي تارة، ومن صديقات أمي تارة أخرى، ومن الناس في المناسبات تارة ثالثة، فنحن لم نكن على علاقة بالجميلة أو بأسرتها.

ذات يوم، وبعد الغداء، أحضرتُ الشاي لوالدي، اللذين كانا يتحدثان عن الجميلة، قالت أمي: إنها تعيسة في حياتها الزوجية طوال هذه السنوات، فهي عنيدة مثل زوجها وربما أكثر، وأهلها يدعمونها بكل قوة، وأخوه الأكبر لم يعد حمامة السلام.

ـ هذا مؤكد، فإخوتها الأربعة، لم يتزوج أي واحد منهم من بناته.

قلت باستغراب واعتراض: حياتهما، مشاكل، وتعاسة، وأنجبا أربعة أطفال؟! ترى لو كان الحب مشتعلا كم طفلا كانا سينجبان؟!

ابتسم والدي، وقالت أمي: عرفتُ أنها طلبت الطلاق منه أكثر من مرة، ولكنه كان يرفض، ليس حبا فيها ولكن رغبة منه في كسر أنفها.

ـ يبدو أنه أنف غير قابل بالكسر.

ـ صدقت يا عزيزي، فلقد سمعت أنها لم تتراجع عن طلبها، بل وأبدت استعدادها لترك الأولاد معه مقابل خلاصها منه.

لم يمر على هذا الحوار سوى ستة أشهر، حتى حدثت الكارثة، لقد تم طلاق محبوبة الجماهير.

بعد عدة أشهر، اجتمعت بعض النسوة في منزلنا، وأخذن يتحدثن في مواضيع كثيرة، تابعت بعضا منها وأُغفلت البعض، ولكن عندما سألت إحداهن عن أخبار طليق الجميلة، أصبح كلي آذانا مصغية.

أجابتها الثانية: لقد تزوج فلانة ابنة فلان، تصغره بعشرين عاما.

أمي: لا توجد مشكلة طالما أنها موافقة، إنه في الأربعين مازال شابا.

الثالثة: لقد أشعلت هذه الزيجة نار الغيرة في نفس مطلقته، والتحدي في نفس والديها اللذين أحسا بالذنب تجاه مدللتهما، فقررا أنه لابد وأن تتزوج ابنتهما في المقابل من شاب أعزب ويصغرها في العمر أيضا.

أمي: من الصعب أن يتقدم شاب كهذا لابنتهما.

الرابعة: لا شيء صعب أمام المال، فبعد بحث ليس بطويل، وجد لها أبوها عريسا يصغرها بعشر سنوات، إنه فلان ابن فلان طول وعرض ووسامة وأعزب.

الثانية: فرصة له ولا شك، إنه فقير معدم.

أمي: سيندم يوما ما، إن عشر سنوات فرق كبير.

أغاظني كلام أمي فخرجت عن صمتي، وقلت مدافعة عن الجميلة: عشر سنين كثيرة بالنسبة لها، أما عشرون سنة فليست مشكلة بالنسبة لطليقها؟!

نظرت أمي إليَّ بقوة مع ابتسامة غير طبيعية، وسألتني عن الحلوى والشاي.

أدركت أنها تريدني أن أصمت، وبما أنه لم يكن أمامي سوى التنفيذ، استأذنت وغادرت إلى المطبخ وأنا ما زلت مغتاظة، وفي لحظة أدركت أن أمي أصابت فيما فعلت؛ فربما لو بقيت لأبديت استحساني لما فعله والداها، وعندها من شبه المؤكد أن النسوة كن ليقلن: هل تريدين أن يفعل لك والداك المِثْلْ؟ فلم يتبقى أمامك إلا القليل حتى تكملي الثلاثين، ونصيبك من الجمال متواضع.

أمام هذه التوقعات والتفكير فيما سيأتي من فصول في حياة الجميلة وطليقها، نسيت ضيفات أمي وشربت إبريق الشاي المُعد لهن عن آخره دون أن أشعر بمرارته التي لم أكتشفها، إلا عندما رأيت إناء السكر لم ينقص منه شيء.

***

١١ـ الزوجة الثانية

الإفلاس، كان السبب لعدم ذهابنا لزيارة عائلة أمي التي تقيم في بلدها الأم لفترة طويلة.

بعد أن شببت وأخي عن الطوق وحصلنا على عمل، تحسّنت ظروفنا المادية، فقررنا أن نسافر إلى هناك؛ لزيارة خالي وأقرباء أمي الذين لم يكن معظمهم يعرف عنا شيئا حتى عدَدُنا، ومن الطبيعي أن لا يكونوا أيضا، يعرفون بوفاة أبي.

احتفى بنا خالي، وجاء الأقارب الذين لم يروا والدتي منذ أكثر من ثلاثين عاما؛ للترحيب بها وللتعرف علينا.

بدأت أحفظ أسماءهم ومدى قرابتهم لنا، فهذا فلان، وهذا ابن فلانة، وهذه أرملة فلان، وهذا متزوج من ابنة فلان، وهذا أعزب.

كان شابا عاديا في كل شيء، ملامحه، شكل جسده، وكذلك كل ظروفه.

كان احتكاكه بنا كبيرا؛ بحكم إقامتنا عند خالي، لأنه صديق لابنه، فكان يأتي لتناول الشاي كل ليلة تقريبا، وعرفت من أمي أن أمه كانت مقربة منها فيما مضى.

السبب الآخر لهذا الاحتكاك؛ هو قبوله - بحكم أنه يمتلك سيارة - عرض خالي بأن يكون مسؤولا عن تنقلاتنا الكثيرة، إذ كنا في شوق كبير لمشاهدة كل معلم وكل مكان جميل في هذه البلاد.

مع الوقت أصبحت أراه ذكيا، ولطيفا، خفيف الظل، كما أخذ يزداد وسامة في عيني في كل مرة أراه فيها، فبدأت أعتاد عليه ، أفرح لقدومه وأفتقده إذا غاب، كان الحديث معه لا يُمل .

كانت لنا الكثير من وجهات النظر المشتركة، فكنا نخرج من موضوع لندخل في آخر، وكان هو يملؤ الحوار بالقصص وبالطرائف.

كنت أعتبره مجرد قريب ليس إلا، ولم يخطر لي أنه سيعجبني وأن علي التفكير فيه كزوج مناسب، لا أدري لماذا، خاصة وأني كنت قد بلغت الواحد والثلاثين من العمر دون ارتباط.

ربما أشعرتني تصرفاته بأنه يعتبرني أختا، أو لأني استنتجت من كلامه أنه يصغرني بأربع سنوات، أو ربما لأني استبعدت أن

يعجب بي هو أو غيره من الرجال؛ إذ كانت ثقتي في أنوثتي ضعيفة، فأدى هذا إلى أن أهمل مظهري بشكل عام، فلم أكن أهتم بأناقتي، كما أني كنت أرفض ارتداء عدسات لاصقة وأصر على ارتداء نظارتي الطبية، ولم أكن أعير الزينة أي اعتبار، كان من الواضح أني مازلت متأثرة بالفقر الشديد الذي كنا نعيشه.

ذات مرة رأيته ينظر إليَّ في مرآة السيارة بإعجاب شديد، ولم تكن نظراته أبدا نظرات أخ لأخته.

تكررت نظراته هذه في كل مكان كان يجمعنا، ووجدت نفسي أتعلق به رويدا رويدا، وبدأت مشاعري تتحرك ناحيته بدورها، وبدأت أهتم به وبنفسي أكثر.

مضى شهر لم أشعر به على وصولنا، وذات ليلة كنا عائدين معه من نزهة، فبدأ بالحديث عن نفسه وعن عائلته بالتفصيل، ووجدته يسألني عن عمري فقلت له: أكبُرُك بأربع سنوات.

بدا عليه الضيق والارتباك، فقام بتغيير الموضوع بسرعة، وبدأ يوجه الحديث لأخي ولأمي دوني، ضايقني تصرفه ولكني أخفيت مشاعري.

أوصلنا إلى شقتنا، التي كنا قد أجرناها بعد أسبوع من وصولنا رغم اعتراض خالي؛ إذ لم نكن نرغب في أن نكون عبئا عليه وهو ذو الدخل المحدود والمنزل الصغير.

عندها رفض الصعود إليها معنا ليشرب الشاي كعادته، بحجة تأخر الوقت، فقلت لأمي: ما رأيك لو يبيت أمجد معنا هذه الليلة؟

قالت أمي بكل رضا: لم لا؟

قال شقيقي له: ستنام معي، فغرفتي فيها سريرين.

رد أمجد معترضا: لا أستطيع؛ عليَّ الاستيقاظ في الصباح الباكر؛ من أجل عملي.

أنا: أعدك بأن أوقظك في الساعة التي تحددها، وبأن يكون الإفطار جاهزا حينئذ.

أمي: إن منزلك بعيد والوقت قد تأخر وأنت متعب من القيادة.

لم نفلح ثلاثتنا في أن نجعله يعدِلُ عن رأيه، فغادر وبقيت واجمة من موقفه وتوجهت لغرفتي متألمة وحزينة، واعتبرت ما بدر منه هذه الليلة، رفضا لي بسبب فارق العمر بيننا.

بعد هذه الليلة بدأ يعتذر لأخي عن مرافقتنا أو إيصالنا إلى أي مكان، بسبب تغير في ظروف عمله.

مر شهر دون أي احتكاك مع أمجد، ومع أني كثيرا ما كنت أحس بشوق إليه وإلى كلامي معه، إلا أن كرامتي لم تكن

لتسمح لي بالاتصال به، خاصة وأن أمه وخالي وابنه، كانوا يخبرون أمي بنفس ما أخبر به أخي، عندما كانت تفعل.

انتهت إجازتنا وعدنا من حيث أتينا، وبقيت لعدة أسابيع آمل باتصال أو برسالة منه، إلا أن هذا لم يحدث، فكان من الطبيعي نتيجة إهماله أن تبدأ مشاعري نحوه بالتلاشي، وساعدني على ذلك انخراطي في عملي وفي حياتي الروتينية مجددا.

مرت سنة وفي يوم عيد الفطر اتصلت أمي بخالي تعايده، ومن خلال حوارها معه عرفتُ أن حفل زفاف أمجد غدا.

أحسست بضيق سرعان ما تلاشى، فلو كان يريدني، لكان بالتأكيد سيخبرني أو سيسألني عن طريق رسالة على الأقل، إذًا، فليوفقه ويوفقني الله.

بعد سنة من زواجه، سافرنا مرة أخرى، وعند زيارتنا لخالي تذكرت أمجد وكل شيء فعلناه معا، وكل القصص والضحك والليالي.

أحسست بأن إعجابي به أكثر بكثير مما كنت أتوقع، بل أكثر مما كان عليه منذ عامين، بل أدركت أني أحبه.

لم أستطع النوم في تلك الليلة، إذ داهمتني مشاعر الندم، فبدأت ألوم نفسي بشدة على عدم تقربي منه أكثر، وعلى عدم تلميحي له بإعجابي به، بل ولم أرى بأسا فيما لو كنت

قد أوصلت الأمر للتصريح، ورأيت أنه كان عليَّ اعتبار نفوره تلك الليلة ومغادرته وابتعاده بمثابة تحدٍّ لي في الحصول عليه، لم لا؟ وفيه كل المواصفات، التي كنت أريدها.

عذبتني مسألة المواصفات هذه، وبدأت تتراقص أمامي، لدرجة أني لم أرَ فيه عيبا واحدا، فقلت لنفسي: يا لك من عمياء، كيف أضعت من يدك شابا مثل هذا؟! بالإضافة إلى أنك أحببت هذه البلاد، وما كنت لتأبهين بمغادرة البلد التي تعيشين فيها حاليا.

أصرت أمه على أن نشرب الشاي عندها ذات يوم ففعلنا، ولم أتوقع أبدا أن يأتي أثناء وجودنا هناك، فمنزله لم يكن قريبا من منزل أسرته، ولكن الأمر حدث، مما تسبب في زيادة ألمي وندمي.

لا أستطيع أن أصف مشاعري لحظة مصافحته لي، أقرب شيء لما حدث هو أن كهرباء قد سرت في جسدي، أحسست أن كل خلية في جسمي قد انتفضت، وبأن انفجارا للمشاعر حدث بداخلي، أدركت أني ما سلوته قط، وبأني لم أكن على وعي بكل هذا الحب بداخلي له، ولكن لم يكن هناك أي شيء في يدي الآن سوى كتمان مشاعري؛ لئلا يبدو علي أي شيء يلفت انتباه والدتي ووالدته، وبعد دقائق زاد الطين بلة؛ جاءت زوجته.

عندها أحسست أني أنظر إلى ضُرَّتي، كرهتها قبل حتى أن أعرف اسمها وكرهت حملها أيضا، ولكني سرعان ما قلت لنفسي: كفى أيتها الغبية أفيقي، لم تعد هناك جدوى من أي شيء، ذهب أمجد إلى غير رجعة، زوجته سوف تضع مولودهما الأول بعد شهر على الأكثر.

بعد ساعة غادرت أمي وأمه الغرفة وكذلك زوجته لأمر ما، فبقينا وحدنا مدة لا بأس بها، نثرثر بعيوننا التي كانت في منتهى الجرأة والتعبير، كان يملؤها الشوق والحب واللهفة، لم أستطع السيطرة عليها، وربما لم أرد ذلك، ولمَ أفعل؟ فلتشبع هي منه على الأقل.

غادرتُ وأمي المكان، ولم يغادر الحزن وجهي ولا الشوق قلبي، ولم أجد إجابة أقولها لها عندما سألتني عما ألم بي، وخلدت إلى النوم باكرا.

بعد يومين من هذه الزيارة مرضت أمي، فجاءت صديقتها تعودها وجاء معها أمجد.

كنت أرجو أن يمكثا لوقت قصير، كما أني انسحبت بسرعة إلى المطبخ أعد العصير، وقررت أن ألجأ إلى أية حيلة لمغادرة المنزل إذا بقيا طويلا، كان عليَّ أن أخرجه من قلبي.

أصابني ارتباك شديد عندما فوجئت بدخوله حيث أنا، فسألته: هل تريد ماءً ؟

ـ اشتقت إليك كثيرا.

سألته معاتبة: أتقول هذا بعد عامين وزواج وطفل في الطريق؟!

ـ كنت أحاول نسيانك كما فعلتِ أنتِ.

ـ فعلتُ عندما أهملتني تماما، ولم تتواصل معي بأية طريقة.

ـ أنا مُعجب بك منذ أول مرة وقعت فيها عيناي عليك.

بعد جملته هذه تحرك غضبي الذي شعرت به منذ عامين، فقررت أن أعبر عن مشاعري القديمة والحديثة وليكن ما يكن، فلم أعد أطيق الصمت، ذكَّرْته بانزعاجه وبابتعاده حينذاك وعزوْت الأمر لمعرفته أني أكْبَرُهُ سنا، فما كان منه إلا أن أنكر تماما بأن يكون هذا هو سبب ما حدث تلك الليلة.

لم أرد مجادلته كثيرا؛ فالمكان والزمان لم يكونا يسمحان، فقلت له: في كل الأحوال كان عليك أنت المبادرة، أم هل كنت تريدني أن أخطبك من والدتك؟!

ـ كان عليك أن تُعطيني الضوء الأخضر تلك الأيام.

ـ أتضع اللوم عليَّ وحدي؟!

ـ نعم، كنت متأكدا بأن فتاة جميلة جدا مثلك، وبمستواك العلمي والمادي، لن تقبل زوجا أقل منها في كل شيء.

لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك من مسألة جمالي هذه، فأنا لم أرَ نفسي كذلك يوما، ربما لو فعلت لكنت زوجته الآن.

نظر إليَّ ببعض الاستغراب، فقلت: لم أرَ يوما أني أفضل منك، ولم يكن ليضيرك شيء لو عرضتَ ورفضتك.

ـ من الصعب أن يُرد الرجل منا، ولا أخفيك سرا بأني نادم.

ـ الندم أصعب بكثير من كلمة لا أيها الرجل.

ساد الصمت بيننا، وبعد لحظات اقترب مني وقبلني على شفتي، ثم سألني: هل أغضبتك؟

لم أجب، فقبلني أخرى أطول من الأولى، وكم تمنيت أن لا تنتهي، أن تستمر ساعة بل يوما بل شهرا بل عمرا كاملا، ولكني تحت خوفي مما قد يظنه بي، ومن كارثة دخول والدته ابتعدت عنه ولُمته، وطلبت منه الخروج.

في تلك الليلة، لم أستطع منع نفسي من انهيار كنت بحاجة إليه ورأيته من حقي، بكيت بحرارة حتى الصباح؛ علَّ الدموع تخفف الألم الذي كان يملأ قلبي، وأخذت أتساءل، هل كل هذا لأني أحبه أم لأنه زوج مناسب أم

لأني لم أتـزوج حتـى الآن، أم للأسـباب الثلاثـة مجتمعـة؟

لم تكـن الإجابـة مهمـة أبـدا، وعقـدت العـزم على عـدم زيارة منـزل والدتـه، مهـما ألحـت عـليَّ أمـي، حتـى لـو اضطـررت إلى التظاهـر بالمرض.

اتصـل بي أمجـد في اليـوم التـالي فلم أجـب، تكـررت محاولاته وتكـررت ردة فعـلي، ثـم فوجئت برسـالة منـه تقول: هـل تقبلين الـزواج مني؟

لم أصدق طلبه ولم أستطع تجاهله، فكتبت له: هل جننت؟

ـ لستُ أول من يتزوج باثنتين.

ـ أبعد سنة من زواجه من الأولى؟

ـ أنـا متأكـد مـن أن الأمـر حدث وسـيحدث في مـكان وزمان مـا، أنـا أحبك وأنـت كذلـك، فلم نبقـى بعيديـن نتعذب؟

ـ ما ذنب زوجتك؟

لم يجبنـي، فكتبـت لـه: ردي النهائـي هـو لا، لا شـك بـأني كنـت غبيـة عندمـا لم أتنبـه لمشـاعري، وعندمـا أخذتنـي العـزة مـن موقفـك، وبأنـك كنـتَ جبانا؛ ولا شـك بـأن الغبـاء والجبن خليـط سيء جـدا، ولكن الأسـوء هـو محاولـة إصلاح ما أفسـده هـذا الخليط.

١٢ـ صفقة مخدرات

كانت أمي من النوع الصعب جدا، متحفظة ومنغلقة بل ومعقدة في كثير من الأمور، تعيش بأفكار الماضي ولا تقبل في صحتها نقاشا أو اعتراضا.

ومما زاد الوضع صعوبة، تَرْكُ والدي لها عنان الأمور فيما يخص الإناث في عائلتنا السعيدة، فقامت بتربيتنا كما تربت هي منذ ما يزيد على ربع قرن.

كان الوضع مقبولا إلى حد ما عندما كنا أطفالا، ولكن عندما دخلنا عالم النساء بدأت الحوادث والصدامات بيننا وبينها؛ إذ كانت الممنوعات تنمو مع نمونا.

كانت تعطينا التعليمات والأوامر وكأنها مديرة وليست أمًّا، الماكياج والملابس القصيرة والضيقة والشفافة وذات الألوان الزاهية ممنوعة؛ فهي خاصة بالمتزوجات فقط، حتى تسريحات الشعر كانت ممنوعة.

مع العلم بأننا كنا نطالب بما سبق، في المناسبات التي تكون النساء فيها مفصولات عن الرجال فقط.

كنا ممنوعات من الذهاب إلى أية فتاة من قريباتنا إذا ما تزوجت؛ بحجة تغير تفكيرها وإمكانية تفوهها أمامنا بكلمة خارج حدود المسموح به في الأسرة العسكرية.

الوقت المسموح لنا به للتحدث على الهاتف كان محدودا ويجب أن تكون المكالمة أمام الجميع، وكم اخترعنا مع صديقاتنا رموزا مضحكة وغريبة نتحدث بها عن الأمور الأنثوية.

حتى النقاش معها كان صعبا، تقرر هي متى يبدأ ومتى ينتهي، وعندما نستمر فيه بعد انتهائه من وجهة نظرها، تدخل إلى غرفتها وتغلق الباب بالمفتاح.

بلغ السيل الزُّبى ذات مرة عند أختي الكبرى، فسألت أمي: ماذا لو لم نتزوج؟

بدا الانزعاج الشديد على وجهها وانتفخت أوداجها فنهرتها قائلة: ما هذا الفأل السيء؟ بإذن الله ستتزوجن وعندها افعلن ما تردن.

كنا ثلاث شقيقات، مها ١٦ عاما، نهى ١٥ عاما، وأنا تقى ١٤ عاما، بعدنا رزق والداي بذكر ختما به مسيرتهما الإنجابية.

لم يكن أمامنا سوى الاستسلام للأمر الواقع، حتى يأتي الفرج بزواج أو بالوصول إلى عمرٍ ترى فيه أمي أن من حقنا الحصول على الحكم الذاتي.

كنا متذبذبات، فمرة نسير على نهج أمي، ننتقد من تخالف لائحتها من بنات العائلة أو ممن هن خارجها، فعند الذهاب إلى حضور مناسبة أو إلى زيارة، ننظر بازدراء لكل مخالِفة ونسلقها بألسنة حداد، فهذه رقصت كثيرا فبدت حمقاء، وهذه ستفسد مساحيق التجميل وجهها وستخسر جمالها بعد الثلاثين أو بعد الخامسة والثلاثين على أقصى تقدير، وتلك كان ثوبها شفافا وفلانة كان ثوبها قصيرا جدا، من ستقبل بها زوجة لابنها؟! الجميع سيتهمنها بسوء الأخلاق ولا شك، مع أني كنت أرى أحيانا أن هذه ملابس تجعل الأمهات يرون الفتاة على حقيقتها مثل البطيخة التي تُشترى على السكين، ومرة أخرى نتمنى أن نفعل مثلهن، وكنا نغلق باب غرفتنا بالمفتاح ونصرح لبعضا البعض - بعد القسم على الكتمان- نصرح بالإعجاب بكثير مما شاهدناه.

أكثر ما كان يعذبنا هو قصات الشعر، كثيرا ما كانت تجعلنا نقف أمام المرآة ننظر للمقص بحسرة راغبات في محاولة التقليد، ولا بأس بأن تكون النتيجة سيئة أو حتى كارثية؛ فهو سيطول مجددا، ولكننا كنا دائما نتراجع أمام العقاب المجهول

الـذي كان ينتظرنـا والـذي كان مـن المؤكد أنـه أسـود، فلقد كان من أهـم شـعارات أمـي: الشـعر الطويـل أولا وأخيرا.

كانـت عندمـا تـرى فتـاة ذات شـعر طويـل أو كثيـف تنظـر إلينـا، وتقـول بلـوم: لمـاذا لا يصبـح شـعركن مثلـه؟

كان هـذا الأمـر تحديـدا أكثـر شيء يغيظنـا؛ فهـو تحـدٍّ صـارخ منهـا لقوانـين الوراثـة، ولكننـا كنـا نصمـت؛ فالحـوار أو الـرد لم يكونـا ذوا جـدوى؛ فهـي الوحيـدة ذات الـرأي الصائـب.

كانـت بنـات عائلتنـا وصديقاتنـا وزميلاتنـا في المدرسـة يرون أننـا قادمات مـن كوكب آخـر ومنفصلات عـن الواقـع، وعندما كنـا نخـبر أمـي بذلـك كانـت تـرى أنهـن وأمهاتهـن قـد نسـين الأصـول والتربيـة الحسـنة، وبـأن الأخـيرات هـن الملومـات عن تصرفاتهـن الغـير لائقة.

عندمـا تخرجـت مهـا مـن الثانويـة تعلقـت عيوننا بهـا، يملؤنا الأمـل بـأن تقـود ثورة ضـد أمـي، فعقدنـا اجتماعـا طارئـا بقيادة الخريجـة التـي قالـت: ليـس مـن المعقـول أن أذهـب إلى الجامعـة وأنـا بهـذا المظهـر، يجـب أن أتماشـى مـع مـن هـن حولي.

أنا: ويجب أن تقصي شعرك أيضا.

أخـذت مهـا تفكـر، وبعـد لحظـات لمعـت عيناهـا وقالـت: أنصتـن إليَّ جيـدا.

التصقنا بها فأكملت: ما لا يعرفه الإنسان لا يضره، نستطيع عمل بعض المخالفات دون أن تعرف أمي.

أنا: ولكنها ستلاحظ شعرنا المقصوص.

صرخت بي نهى: من قال لك أننا سنقص شعرنا أيتها الغبية؟!عليك التركيز قليلا.

مها: سنكسر القوانين الواحد تلو الآخر، وأولها حظر الزينة، هل توافقان على ذلك؟

أنا: سيري ونحن خلفك سيدتي القائدة.

آخر الأسبوع جاءتنا أول فرصة للكسر؛ فلقد دعتنا صديقة مها لحفل زفاف أختها ورفضت أمي مرافقتنا قائلة: لا أعرف أحدا من أسرتها ولا من أسرة العريس، وغالبا لن أعرف أحدا هناك، ستذهبن مع والدكن الذي سيعيدكن عند الثانية عشر بالضبط.

أنا: لن يكون الحفل قد اشتعل.

نظرت إلي مها ونهى شزرا، وقلن: موافقات.

مها: نريد الذهاب اليوم إلى الملاهي لو سمحت.

باعتراض: أتخرجن مرتين في الأسبوع ؟ !

ـ سنقابل عزة؛ لتعطينا بطاقات الدعوة الخاصة بزفاف أختها، ونعدك بعدم التأخير.

في زيارة سابقة للمكان المذكور رأينا محلا تتوفر فيه أدوات الزينة، فاستجمعنا شجاعتنا ومالنا واشترينا ما نرغب به، الأحمر والأخضر والأسود وباقي الألوان من الكريمات والبودرة والأدوات، حتى أننا اشترينا أشياء لا نعرف أين توضع.

كان حدثا مميزا، كنا خائفات وسعيدات في نفس الوقت.

أخفينا ما اشتريناه بحرص شديد في حقائبنا وفي أماكن سرية في ملابسنا، وأثناء ذلك انفجرتُ من الضحك وقلت: أحس بأننا نخفي بعض المخدرات.

مها: لا يوجد فرق كبير من وجهة نظر أمي.

أنا: كيف سنخرج من المنزل، دون أن تلاحظ منظرنا ليلة العرس؟

نهى: سنضعها في الحفل، ركزي أيتها الغبية.

أنا مهددة: لو وصفتيني بالغباء مرة أخرى سأخبر أمي بكل شيء، سأهدم المعبد على رأس الجميع.

في ليلة الزفاف كان القلق الشديد حليفنا، أخذنا المخدرات وانطلقنا، وفور وصولنا توجهنا حيث المرايا وبدأنا العمل الذي كان متعبا ومعقدا؛ إذ كان ما نجهل أكثر بكثير مما نعرف.

كانت هناك عدة نقاط لزامٌ علينا مراعاتها، الانتهاء في ساعة على الأكثر؛ حتى يتسنى لنا الاستمتاع بالحفل، مراعاة أن لا تكون زينتنا ملفتة جدا للنظر؛ خشية وجود صديقة لأمي تنقل لها فِعْلتنا، كما يجب أن تكون سهلة المسح؛ إذ لا نستطيع مقابلة أبي بها.

انتهينا، ورأينا أننا مختلفات عن السابق لدرجة أن مها قالت: هل تتوقعن أن تتعرف عزة علينا؟

أنا: لن تفعل، وسنضطر لتقديم أنفسنا لها، أنا متأكدة أنها ستطلق علينا لقب قبل وبعد.

سلمنا على عزة التي رحبت بنا، وطلبت منا الاختلاط بالمدعويين وقضاء ليلة جميلة واعتذرت على عدم بقائها معنا؛ إذ عليها البقاء طوال الوقت بجانب العروس وبجانب والدتها.

سألت مها: أليس من الغريب عدم تعليقها على زينتنا أو على مظهر شعرنا؟!

نهى: لا بد أن الضغط الذي ترزح تحته هو السبب، ألا ترين كم هي مشغولة؟!

مها: هيا بنا نعش ليلة مميزة ولننسى كل شيء.

بالرغم من أننا حضرنا أجمل وأفخم من هذا الحفل بكثير، إلا أنه كان في نظرنا أروع ما شهدنا حتى الآن، اختلطنا وتحدثنا وضحكنا ورقصنا مع الجميع وتنقلنا هنا وهناك، لم نهدأ لحظة واحدة، وعندما جاء موعد الرحيل، ذهبنا لتوديع عزة التي سألتنا بفضول وعتاب شديدين: لماذا لم تضعن أية زينة سوى الكحل يا بنات؟؟؟؟!!!

تجاوزنا الآن الأربعين من العمر، تزوجنا وأصبح لدينا بنين وبنات، وقد تعاهدنا أن تكون تربيتنا للبنات مختلفة عما كان عليه الحال معنا.

كنا دائما نراقب تصرفات بعضنا البعض، فنُرجِع من تحن إلى الخاطئ من أساليب أمي إلى رشدها، أما الصائب منها فكنا نخلطه مع أساليبنا مُنتِجاتٍ تركيبة معتدلة قدر الإمكان، كان شعارنا: الزائد أخو الناقص.

في الأيام الجيدة، كانت ذكرياتنا مع أمي مادة لضحك هستيري خاصة حفل زفاف أخت عزة، وفي الأيام السيئة كانت نفس الذكريات مساعدا جيدا على ذرف الدموع، ولكننا كنا دائما ندعو لأمي (القائد الأعلى للقوات المسلحة في منزلنا) بالرحمة وبالمغفرة.

١٣ـ في أسرتنا جريمة قتل

أعيش مع أسرتي في مجتمع محافظ، ومع أني لم أكن أعرف على ماذا يحافظ بالضبط، ولكنه مشهور بذلك وكفى.

ذات يوم، وكان هذا بعد تخرجي من المرحلة الثانوية مباشرة، سمعت أخي الأكبر يقول لوالِديْ: إن سامر يريد الزواج من ندى.

سأل أبي: ما هي مواصفات هذا السامر؟

قال أخي باقتناع: أهم شيء فيه تدينه، فهو ملتحٍ وذو ثوب قصير ولا يدخن.

كان المجتمع يصف الشخص الذي يحمل هذه الصفات بالمتدين، ومجددا لم أكن أعرف السبب في هذا.

أزعجني الأمر جدا، ولكني لم أنطق وانسحبت بهدوء دون أن يلاحظ أحد وجودي في المكان حينئذ.

في المساء، جلست أمي معي وأخبرتني بالأمر، فقلت لها: ولكني لا أريد الزواج بشخص معقد.

ـ أخوك يمدحه كثيرا، قابليه ثم قولي رأيك، الشكل ليس دائما دليلا على الشخصية.

ـ هناك سبب أهم، قد أكون مستعدة للزواج جسديا، ولكن نفسيا لست كذلك.

باستهجان: نفسيا؟!

ـ هذا ما توقعته، لن تفهميني أو تحسي بي، كما أن هذا الخاطب، لا يعرف عني شيئا ولا يعرف حتى شكلي.

ـ لا شك أنه افترض أنك تشبهين أخاك في الأخلاق.

مستهزئة: وربما في الشكل أيضا.

ـ لا أريد سماع المزيد الآن.

لم يكن أبي قريبا مني للأسف، حتى أتجرأ على الحديث معه في الأمر، وهو لم يتحدث معي بدوره، وقام بالاتفاق مع أخي على تحديد موعد مع سامر لزيارتنا نهاية هذا الأسبوع، ورفض أن يسمع من أخي أية تفاصيل عنه؛ مفضلا معرفتها من صاحب الشأن.

عنـد هـذا، أحسسـت بـأني أضيـع، فبمجـرد موافقـة أبي سـيصبح موقفـي سـيئا جدا، وقـد لا أسـتطيع المواجهـة، فيصبح الـزواج واقعـا لا محالـة.

لم يكـن للاسـتعداد النفـسي أيـة علاقـة بالاعـتراض، كنـت أرفـض الـزواج مـن أي شـخص يوصـف بالمتديـن، لم أكـن أريد الحيـاة في سلسـلة لا تنتهـي مـن المحرمـات باسـم الديـن.

كان تفكـيري مختلفـا بشـكل كبـير جـدا عـن أخـي، ولم أكـن أريـد يومـا الارتبـاط بأحـد أصدقائـه، فمـن المؤكـد أن الطيور في الصداقـة تقـع عـلى أشـكالها، ولكـن حدث مـا كنت أخشـاه ولا أدري كيـف أتـصرف.

جـاء اليـوم المحـدد، وجـاء سـامر ورأيتـه مـن الشـباك، كان متوسـطا في كل شيء، حنطـي اللـون، لم يكـن وسـيما ولا قبيحـا، ولكنـي نفـرت منـه وأحسسـت بانقبـاض في قلبـي.

جلـس مـع والدي وأخـي، ما يقارب السـاعة، وفـور مغادرته دخلـتُ مـع أمـي التـي اندفعـت بـكل حمـاس؛ لتجـري تحقيقـا مـع أبي تعـرف منـه كل مـا عرفـه: هيا أخـبرني، مـا ذا قـال؟ ماذا يعمـل؟ مـا هـي دراسـته، كـم راتبه؟

نظـر أبي لأمـي ببعض الخبث ثم قـال: هل تريديـن أن تُقنعيني بـأن ابنك لم يخـبرك بكل هـذا، بل وأكثـر؟ وبأنك لم تكـوني واقفة عند البـاب أيضا؟

ضحكـت أمـي بصوت عـالٍ، ثم قالـت: أريد سـماع كل شيء منـك أنت.

ـ عمـره ٢٣ عامـا، أعـزب، كل أسرتـه في بلـده الأم، وهو هنا للعمل .

ـ جميل.

ـ هناك القبيح أيضا، فهو يحمل شهادة الثانوية العامة فقط.

ـ مـازال الوقـت أمامه ليكمـل تعليمه، ولتكمل نـدى تعليمها معـه أيضا.

ـ إن راتبه قليل، ستنتقل ابنتنا من فقر إلى فقر مشابه.

ـ الفقـر ليـس عيبـا، كـما أن ابنتك تؤمـن بالكفـاح وببناء عش الزوجيـة عودا عـودا مثـل العصافير.

نظر أبي إليَّ وسألني: هل هذا صحيح يا عصفورة ؟

تجـرأت وقلت: لقـد قالـت إخصائيـة اجتماعيـة في برنامج ما، إن السـبب الوحيـد لنظريـة العصافـير هو الحب.

هنا قالت أمي: اترك العصفورة، أراه مناسبا، يكفي أنه أعزب، كما أن فرق السن بينهما معقول، والراتب القليل سيزيد مع الوقت يكفي أنه ثابت، كما أن بُعد أسرته سيجعل حياتهما خالية من أية تدخلات.

أصبح النقاش حامي الوطيس، فأمي وأخي ضد أبي، فكانا ينجحان أحيانا في جذبه لرأيهما ويفشلان حينا آخر، أما أنا فلم أعد أسمع أية كلمة مما يقال؛ بسبب الحيرة والخوف من المجهول.

فجأة وقف أبي فوقفت مباشرة، وقد تعلقت عيناي به، وها هو ينطق: إنه من جنسية أخرى، وهذا أمر لا يريحني.

كان أبي متعصبا لجنسيته، ولأول مرة أجد حسنة في العنصرية.

عندما اطمأنيت على الرفض، غادرت المكان وكذلك أخي، وكم كنت سعيدة، أحسست أن حجرا ثقيلا كان جاثما على صدري قد أزيح عنه.

انسحب أبي إلى غرفته، وكان الأمر لينتهي بهدوء لولا أمي التي تبعته وأغلقت الباب، ولم أجد بدا من الوقوف خلفه لأسمع ماذا سيُقرَّر بشأن مصيري.

علا صوت أمي بالنقاش فرد أبي بالمثل وبدأ يتشاجران، ولأول مرة لا أرى بأسا من شجارهما بل ومن خصامهما أيضا.

بعد أن أصبحتُ شبه متأكدة بأن أبي لن يتزحزح عن رأيه، دخلتُ إلى غرفتي، وأخبرت أختي ذات الأربعة عشر ربيعا بكل المستجدات.

وبعد قليل، غادر أبي المنزل، وعرفنا أنه غاضب جدا؛ من صوت الباب، فقد أغلقه خلفه بكل قوة، بينما بقيت أمي في غرفتها.

قلت لأختي: أنا قلقة من نتيجة صراع القوتين.

أختي: حسب كلامك، لقد استطاع أبي أن يُسجل أكبر عدد من الأهداف في مرمى أمي.

ـ أخشى أن تكون أمي قد أوصلت المباراة إلى الأشواط الإضافية.

ـ سنعرف الآن، اهدئي.

كان قلقي في محله، فها هي أمي تدخل إلى غرفتنا وتجلس على سريري، وتقول لي: فكري في الأمر جيدا فلو وافقتِ سأحاول أنا وشقيقك إقناع والدك بالعدول عن رأيه.

نظرتُ إلى الأرض، وقلت لأمي: أنت تعرفين رأيي.

نهضت وقالت بغضب: افعلي ما تشائين أنت ووالدك، ولكني أؤكد لك أنك ستندمين يوما ما على هذا الشاب.

مـر عـام، واضطـر أخـي للسـفر إلى بلـد آخـر للدراسـة، فجابهـت أنـا وأختـي مـع أمـي أعبـاء الحيـاة؛ لأن والدي سـقط مريضـا بشـكل مفاجـئ.

كنـا بحكـم المجتمـع المحافـظ، لا نعرف مـن العـالم الخارجي الكثـير، وهنـا بـدأ الصديـق يتدخـل في حياتنـا مـن بـاب المروءة والصداقـة فقط.

أخذ يتصل بنا هاتفيا باستمرار، لسؤالنا عما نريد.

في البدايـة كنـا نرفـض أيـة مسـاعدة منـه، ولكنـا مـا لبثنـا أن وافقنـا وذلـك أمـام الأمـور التـي كانـت تعتـبر جسـيمة بالنسـبة لنـا، وهـي مـا كانـت تحتـاج اتصـالا كبـيرا بالعـالم الخارجـي.

تعودنـا عليـه مـع الوقـت، فأصبحنـا نلجـأ إليـه حتـى في الأمـور البسـيطة، كنـت أنـا و أمـي مـن نتحدث معـه عـادة، أما أختـي فكانـت نـادرا مـا تفعـل.

ذات يـوم حـدث أمـر جلـل، إذ طلـب مالـك المنـزل الـذي نقطنـه منـا المغـادرة، وكـم كان توقيتـا قاتـلا، فرجونـاه أن ينتظـر الأجـازة؛ حتـى يعـود أخـي، ولكنـه رفـض.

كنا بحاجة إلى البحث عن منزل جديد، وكذلك بحاجة لسيارة كبـيرة تقـوم بنقـل أثاثنـا، ولكـن الأمـر الجلـل سرعان مـا أصبح هينـا مـع وجـود الصديق، الـذي أثبـت لنا أنـه عند حسـن ظننا.

في الجديد زاد قربه واعتناؤه بنا وزادت اتصالاته، وبدأ مع الأيام يلمح لي بأني أخطأت عندما رفضت الاقتران به، ثم ما لبث أن صرح بذلك، فقررت أن لا أتحدث معه إطلاقا، فأخذت أختي مكاني في هذا.

أخذت أحاديثهما معا تصبح أطول فأطول مع الوقت، ولم يعد سامر يسأل عن أحوالنا بشكل عام فقط، بل أصبح يتحدث مع أختي عن دراستها وعن هواياتها وعن كل تفاصيل حياتها.

كانت هي من تخبرني، إذ لم أكن أسألها عن ما يدور بينهما من أحاديث؛ لثقتي الكبيرة فيه والتي بنيتها على ثقة أخي، فلم أخشى شيئا على أختي التي من المؤكد أنه يعتبرها أختا صغرى.

كانت أمي تشاركني هذه الثقة؛ خاصة وأنها تعطيها مساحة لتنشغل بقالَبِها مع المريض، وبقلبها وبعقلها مع المغترب.

ذات يوم فوجئت بأختي تبكي بحرقة، فسألتها بقلق بالغ: ماذا بك؟

أختي: لا شيء.

ـ لماذا تبكين إذن؟

ـ أمر تافه.

ـ ليس كذلك، هيا أخبريني بالأمر، وإلا أخبرت أمي.

ـ سامر.

ـ ما به؟

ـ لقد قال لي، إنه يحبني جدا ومعجب بي جدا.

صدمني الأمر، ولكني تماسكت وبقيت هادئة؛ حتى تخبرني أختي بكل شيء: وماذا أيضا؟

ـ قال إنه من الجيد أنه لم يتزوج بك؛ إذ كان الأمر سيُعد ورطة بالنسبة إليه، لأنه كان ليحبني بمجرد أن يتعرف عليَّ.

دارت بي الأرض عند هذا الكلام، ولكني عدت لتهدئة نفسي مرة أخرى، وقلت محاولة تهدئة روع أختي: لا تنزعجي هكذا، إن إعجاب رجل بك أمر جيد.

ـ هذا ليس مجرد رجل، لقد وثقت به كأخ، لأنه أكد لي منذ أول اتصال بأنه يعتبرني أخته الصغرى، وكان يعيد تأكيد الأمر في كل مناسبة، فأخذت أخبره بكل كبيرة وصغيرة عن حياتي، ثم أجده يخبرني بحبه، هل هذه هي الأخوة والأخلاق؟!

توقفت عن الكلام عند كلمة الأخلاق هذه، ثم ربَّتُّ على كتف أختي بحنان، وقلت لها: أنت محقة فيما قلت.

قالت بغيظ من نفسها: كيف لم أفهم نواياه، طوال هذه المدة، كيف؟!

ـ لا تكوني قاسية على نفسك، أنت لم تكملي السادسة عشر من العمر بعد، وما زلت طفلة ومثالية جدا في كثير من الأمور.

بدأت تمسح دموعها، فأكملتُ: في هذه البيئة المغلقة يا عزيزتي لا تنمو الفتاة كما يجب، ما زال أمامك الكثير حتى تعرفيه عن عالم النساء والرجال والحب.

ـ وهل عمرك أنت يسمح؟

ـ بالطبع، لو كنت تخبريني بكل ما كان يدور بينكما بدقة، لأدركت نواياه قبل أن يصرح بها، وكنت سأحذرك وأبعدك عنه .

هزت أختي رأسها باقتناع، فقلتُ لها: انسي الأمر وانسحبي من الساحة، وبرري ذلك بانشغالك بالدراسة، ولنترك الحديث معه أو مقابلته لأمي.

تركتها تكمل مسح دموعها وتوجهتُ إلى المطبخ؛ فلم أعد قادرة على التماسك والهدوء أكثر من ذلك، وأخذت أذرعه ذهابا وإيابا وأضرب كفا بكف وأفرك يداي بغيظ وكسرت طبقين، وتمنيت لو أستطيع كسر كل الأطباق، لقد كنت

منزعجة وثائرة جدا، كم هي مستفزة حقيقة سامر، والأكثر استفزازا اعتباره لي، ورطة!!

وفجأة تذكرت أحد الأفلام العربية، حيث يقع البطل في حب الشقيقة الصغرى لزوجته، فيقتل الأخيرة ليفوز بالأخت.

عندها ضحكت من كل قلبي وقلت بصوت عالٍ: ليت أمي المتأكدة من أني سأندم على سامر يوما ما، تعرف بأني كنت على وشك أن أُقْتَل.

***

١٤ـ صاروخ أرض جو

أنهت لتوها دراستها الجامعية بتفوق تُحسد عليه، وعندما قررت أن تبدأ دراسة (الماجستير) تقدم لخطبتها.

هو شاب تتمناه كل فتاة، مثالي في كل شيء لدرجة مخيفة، في شكله وشخصيته وعمله وأسرته، ويكبرها بخمس سنوات فقط .

كانت سعيدة جدا به، وكذلك كانت أسرتها.

فترة الخِطْبة، الهدايا، النزهات، التجهيز لحفل الزفاف الذي أصر هو وأسرته على أن يكون ذو شأن، عش الزوجية بمساحته الكبيرة وبألوانه وبامتلاء جنباته بالأثاث الفاخر وبالتحف التي انتقياها سويا، كل شيء كان رائعا وممتعا، بل ومذهلا حالما.

أكثر ما كان يبهجها، هو كلامه الجميل ووعده بحياة زوجية سعيدة ووردية، لقد فرش الأرض لها زهورا.

لم تكن تعرف أن المثالي، لم يرغب بالزواج بها لجمالها أو لباقي صفاتها التي يمدحها الجميع، بل فعل؛ لأنه رغب بزوجة أقل منه في كل شيء، في المستوى المادي، والحسب، والنسب، وفي المستوى التعليمي أيضا؛ ليستطيع التحكم بها، وليُعيِّرها بالفرق الذي بينهما إذا ما جد الجد.

حتى مكان شهر العسل، لم يكن حبا في أوروبا التي حفظها عن ظهر قلب بحكم حصوله على الدكتوراه منها، وبحكم سفراته المتعددة إليها؛ بل لتظل العروس فاغرة فاهها أشهرا؛ لما رأته هناك، ولتقص ذلك على عائلتها وعلى صديقاتها، ولتتذكر دائما، أنه لا توجد وربما لن توجد في المستقبل من ستذهب إليها في شهر العسل مثلما فعلت، ليظل يمارس معها دور الرجل ذو الكلمة الواحدة والأمر المطاع والصوت العالي.

ذكاؤها وثقافتها جعلاها تشك في مقصده خلال هذا الشهر، لكنها كانت تُكذِّب نفسها بقوة، وكانت تعد هذه الأفكار غباء شديدا منها لا تدعمها أدلة دامغة، وساعدتها شخصيتها المتفائلة على رؤية الجانب الممتلئ من الكأس في كل كلمة وتصرف منه، بل وكثيرا ما كانت تُحمِّل نفسها مسؤولية أي سوء تفاهم يحدث بينهما، وربما الصدمة بحقيقته هي ما جعلتها تفعل.

بعد العودة من الرحلة، بدأ كل شيء ينكشف بالتدريج مع بدء الحياة الواقعية، ومع الأشهر لم يعد بوسعها الاستمرار في إنكار الأمر، ولم تجد أمامها إلا أن تصمت وتتنازل؛ فالحياة الزوجية تصيب الكثيرين بالارتباك، كما كانت مؤمنة بمسألة طاعة الزوج في كل شيء، وبضرورة إرضائه، وآمنت أيضا، بأنه سيعود لما كان عليه قبل الزواج، مع أن الأمور كانت تزداد سوءا.

مرت أربع سنوات، كانت الأوقات السعيدة فيها قليلة، مما جعلها دائمة الحزن، والصمت، والشرود، كما أصيبت بالهزال، والأمر الأخير كان محط سخرية وطرائف لاذعة من قبله.

أصبح حال سهى واضحا لصديقاتها ولأقربائها، ولم يعد أحد منهم يصدق الأعذار الواهية التي كانت تختلقها هي وأسرتها لسبب تعاستها.

أما والداها اللذان يعرفان ما تمر به، فكانا دائما يحثانها على الصبر، ويؤكدان لها بأنه سيتغير.

ذات يوم انفجرت وقالت لأمها: أريد الطلاق.

باعتراض شديد: هل جننت؟! إن جميع من يعرفنا يحسدونك على زوجك، هل تظنين أن المحيطين بك من قريباتك أو صديقاتك ليس لديهن مشاكل؟! بلى، ولكنهن أكثر براعة منك في التظاهر بالسعادة، انظري حولك كل شيء جميل في حياتك.

ـ لقد جعل بدر كل شيء حولي يصبح باهتا لا طعم له، كل يوم بعد أن يعود من عمله، يذهب للتسكع مع أصدقائه، ويعود للمنزل كما يعود السائح إلى فندقه، وكأن وجودي لا قيمة له أو أمر مسلم به، لا نخرج إلا نادرا، لا يأتي معي لزيارتكم إلا نادرا، أزور صديقاتي بشق الأنفس، يرفض ذهابي إلى معظم المناسبات حتى لو كانت خاصة بعائلته دون سبب مقنع، لا يكترث بمرضي أو بحزني.

ـ لا تكوني ناكرة للنعمة، إن أرخص خاتم في إصبعك؟ يساوي راتب والدك لشهر كامل.

نظرت سهى بانزعاج لأمها، التي لاحظت ذلك، فأحبت تغيير الموضوع، فقالت: كل الرجال كذلك.

بانفعال: مللت هذه الجملة التي تعلمين جيدا أنها غير صحيحة، انظري إلى أبي، إلى أزواج أخواتي وصديقاتي، أنت تخدعين نفسك يا أمي، تدافعين عنه، كما لو أنك لا تعرفين شيئا عن أسلوبه معي، أنا دائما هي المخطئة في نظرك.

كانت سهى تحس بأن المسافة تزيد بينها وبين بدر مع مرور السنوات، وكانت تحس بأنها أقرب ما تكون إلى الجارية، منها إلى الزوجة.

كم كانت تتألم لرؤية اللواتي تزوجن بعدها، وقد أصبحن أمهات لطفلين، وربما أكثر، وهي مازالت تدعي أنها متفقة مع زوجها على تأخير الإنجاب، وكثيرا ما كانت تجبر نفسها على الضحك، عندما تقول: أود المحافظة على جسدي الرشيق أطول فترة ممكنة.

ذات ليلة، وأثناء متابعة بدر لمباراة كرم قدم، سألته: لماذا لا تريد الإنجاب؟

قال دون أن يزيح عينيه عن التلفاز: أخبرتك بالسبب أكثر من مرة، ولكنك تعودين لنفس السؤال.

ـ أريد الإنجاب بعد أن يكون لي مشروعي الخاص، لا أريد أن أبقى في الوظيفة طوال عمري، لم تعد هذه الحجة تقنعني، خاصة وأنك لا تفعل أي شيء حتى تبدأ مشروعك المنشود.

ـ وما أدراك؟

اغتاظت سهى من سؤاله، الذي كان صحيحا إلى حد كبير، فهي لم تعد تعرف الكثير عن زوجها، فقالت: متأكدة أنك لا تريد؛ لأنك تراني أقل شأنا من أن أصبح أما لأولادك.

ـ أرى أن أفكارا غريبة تسيطر على تفكيرك؟!

لم تُرِد أن تعدد له الأشياء التي تؤكد صحة كلامها، فغيرت الموضوع وقالت: دعني أستغل وقتي إذن بالدراسة، دعني أحصل على الماجستير على الأقل.

نظر إليها، وصرخ بها: حينها سترغبين بالحصول على الدكتوراه، ثم تلحين على العمل، وهذا ما أرفضه.

وقف بدر وأكمل: لماذا تناقشين نفس الأمر مرارا وتكرارا، مع أني أمرتك بأن تتوقفي عن هذا الأسلوب؟!

أثارت كلمة أمرتك حفيظة سهى؛ فهي تسمعها لأول مرة، فبدا لها بأن بدر سيصل إلى مستوى جديد من قهرها، فنهضت وسألت مستغربة بصوت عالٍ وتصميم: أمرتني؟!!

كان ثمن هذا التصرف، صفعة أطاحت بها على الأرض.

لم تكن هذه أول مرة يضربها ابن العز فيها، معظم نقاشاتهما كانت تنتهي هكذا.

كانت هذه سياسة انتهجها معها بعد شهرين فقط من زواجهما؛ ليضمن أقل قدر ممكن من النقاشات، وهو أسلوب أثبت نجاحه، إذ أصبح الصمت الزوجي بل الخرس شبه دائم بينهما، فسهى كانت تدقق في كل كلمة بل وفي كل حركة تصدر منها؛ خشية إغضابه وصراخه اللذان يحدثان لأتفه الأسباب وغالبا ما كان الأمر يتطور إلى الضرب.

لم تكن تستطيع أن تخبر أحدا من أسرته بما يحدث؛ إذ كانت تميل إلى أنه لا علاقة لهم بتصرفاته؛ فهو كان يعاملها بلطف أمامهم، وكم كانت تحب زيارتهم لهذا السبب، لقد كان يتصرف معها كما كان في فترة الخطوبة.

منذ البداية، حنت العروس رأسها، وها هي مستمرة في الانحناء، كما أوصتها، ومازالت أمها بذلك.

لم يكن الاستسلام الذي وصلت إليه، بسبب الوصايا فحسب، كان السبب الأهم في اعتقادها، هو الأشياء المعنوية التي كسرت بداخلها مع السنين شيئا فشيئا.

لقد تدنت ثقتها بنفسها كثيرا، وأصبحت تشك في قدرتها على مواصلة دراستها، أو في صلاحيتها في شَغْل وظيفة جيدة، حتى جمالها أصبحت في بعض الأحيان تشك فيه، وأصبحت واثقة بأنها لن تحصل على زوج مناسب إذا ما أصبحت مطلقة.

بعد أسبوع من حادثة الضرب الأخيرة، ذهبت لزيارة أهلها وذهب معها بدر.

عندما يكون برفقتها، تكون الزيارة ممتعة ومختلفة، إذ يتخللها الكثير من الضحك والمزاح من قبله مع والديها، كان المثالي دائما مرحا ولطيفا في وجودهما، لا يظهر على حقيقته، وكان هذا سبب اقتناع والديها، بأنها تبالغ في كل

شكواها منه، وأنها هي من تتسبب لنفسها بالصفعات.

هذه المرة أحست بغيظ شديد من كذبه على غير عادتها، وزاد غيظها أيضا، إهمال والديها لها وتركيز حديثهما معه طوال الوقت، رغم أنهما عرفا بمسألة ضربه الأخيرة لها، قالت لنفسها بألم: هل أصبح تعرضي للضرب شيئا عاديا؟!

أثناء انشغال الثلاثة عنها، عادت بتفكيرها إلى الماضي، فتذكرت بألم وحسرة أحلامها التي كانت تتحدث عنها أمام الجميع عن الدراسة والعمل.

تناول الجميع العشاء، وبعد تناول الحلوى والشاي، حان موعد العودة إلى المنزل، وكالمعتاد نظر إليها ابن العز بصرامة، فنهضت الجارية الجميلة وتبعت سيدها.

في الطريق، أوقف بدر سيارته عند محل لبيع المثلجات وتوجه إليه، دون أن يسألها عن النكهة التي ترغب بتناولها.

بعد قليل عاد وهو يحمل علبتين بنكهة الكاكاو، وعندما أعطاها واحدة قالت له: لم لم تسألني عن النكهة التي أريد؟

بدر: أنت دائما ما تأخذين المثلجات بالكاكاو.

قالت بتصميم يرافقه صوت هادئ: أريد الليلة مثلجات بالفراولة.

بعدم اكتراث: لن أنزل مرة أخرى؛ لقد تأخر الوقت، ولديَّ عمل في الغد.

ما زالت تحتفظ بتصميمها وبهدوئها: سأنزل أنا.

ـ لن تفعلي.

فتحت سهى الباب، وقبل أن تتحرك قيد أنملة، غضب بدر من موقفها الجديد عليه، وأغلق الباب ورفع يده ليضربها، عندها وبدون سابق إنذار، خلعت سهى حذاءها وانهالت به على المثالي ضربا.

كانت ثائرة لدرجة، أنها ضربت كل ما استطاعت بلوغه من جسده، ولم تبالي بأن حذاءها كان ذو كعب عال، وكان من الممكن أن يقتله أو أن يترك به عاهة مستديمة، كل ما اكترثت به، هو تلك الملحمة التي سطرتها بحذائها.

هي لا تتذكر حتى هل رفع يديه مدافعا عن نفسه أم لم يفعل؟ وهل حاول إمساك الحذاء أم لا؟ لا تتذكر أبدا ردة فعله، لقد توقف الزمان والمكان، وتجمد زوجها في تلك الدقائق.

ولكن.....

ترى، ما الذي حدث بعد هذه العاصفة؟ هل ضربها لدرجة أنها دخلت المستشفى من آثاره؟ أم ألقى بها في الشارع

غـير عابـئ بـما سـيحدث لهـا؟ هـل ذهـب بهـا إلى بيـت أهلهـا وطلقهـا أمـام والديهـا ثـلاث طلقـات؟

لقـد قتلهـا ووضعهـا في كيـس ودفنهـا في حديقة المنـزل، تلك التـي كانـت دائمة الاعتنـاء بها، دفنها تحـت الورود الحمـراء التي زرعتهـا بيديهـا وكانت أحـب شيء إلى قلبها.

مـا حـدث كان مفاجئا أكثـر من كل ما سـبق، لقد عـاد لوعده بالسـعادة الزوجيـة، والأحـلام الورديـة، فوافـق ابـن العـز عـلى الإنجـاب، ليـس هذا فحسـب بـل على إكمالهـا دراسـتها، ليس في بلدهمـا، بـل في أوروبـا، واسـتقال من عملـه، حتى يسـافر معها.

***

١٥ـ تحت المطر

يا طفلة تحت المطر، تركض واتبعها بنظر.

بيت الشعر هذا، مطلع أغنية أذيعت في يوم ماطر في أجازة نصف العام الدراسي، عندما خطر لوالِدَيْ القيام بزيارة أسرة كانت تربطها بنا صداقة قديمة.

انقطع الاتصال بين العائلتين؛ بسبب انتقالنا إلى المدينة من الريف حيث كنا نسكن.

كان القرار شيقا جدا لي؛ فأنا أحب الطبيعة كثيرا، كما أني كنت أحس بأني أعرف تلك الأسرة جيدا وأرغب في رؤيتها؛ بسبب كلام أمي الجميل عنها إذا ما تذكرَتْها، وكثيرا ما كانت تقص علينا مواقفها الطيبة معنا، وهي أمور لم أكن أذكر شيئا منها؛ إذ كنت لم أكمل عامي الثالث عندما غادرنا، وأخواي لم يكونا قد ولدا بعد.

انطلقنا في الصباح الباكر، وهناك تم استقبالنا بحرارة.

بعد الترحيب بدأت أمي وصاحبة المنزل وحماتها (التي كانت تقيم معها) في تذكر الأحداث الماضية السعيدة منها والتعيسة.

نظرت إلي الحماة وقالت: لقد أصبحت ابنتك عروسا جميلة.

ابتسمت أمي: أمامها بضعة أشهر لتكمل الرابعة عشر، لم تصبح امرأة بعد.

ـ جسمها يقول غير ذلك.

شعرت بإحراج شديد مما سمعته، خاصة كلمة عروس وهو أمر لاحظنه فبدأن يضحكن ويتهامسن ويتغامزن بشكل غير مفهوم بالنسبة إلي.

كانوا كرماء جدا معنا؛ قدّموا لنا ما لذ وطاب من المشروبات والحلويات، كما كان طعام الغداء شهيا، وبعده دعتني ابنة صاحبة المنزل، والتي تكبرني بعامين تقريبا للقيام بجولة في المكان.

كانت نزهة ممتعة وسط الهواء اللطيف والخضرة والماء ورائحة العشب والسماء الصافية والحيوانات.

كانت الفتاة لطيفة جدا معي، إلا أني لم أنطق سوى بكلمات معدودة طوال الوقت على عكسها، فلقد تحدثت عن أسرتها

وعـن أشـقائها الثلاثـة الذيـن يكبرونهـا مهـدي، وعمـر، ونادر، وعـن خطيبهـا الـذي هـو ابـن عمهـا، وأخبرتنـي أنهـا سـتتزوج صيـف العـام المقبل.

بعـد حـوالي السـاعتين عدنـا إلى المنـزل، فوجـدت أمـي وأمها وجدتهـا، يتحدثـن عـن مهدي.

تنهـدت الجـدة وقالت بضيـق: سـامح الله ابني؛ لقـد رغّب في التقـرب أكثـر مـن أخته، فاقـترح عليـه أن يخطب لـه ابنتها.

بـدا الفضـول والاسـتغراب عـلى وجـه أمـي، فسـألت: مـا الـذي حـدث؟!

الجـدة: بعـد أن وافـق والـدا العـروس، خطبهـا ابـن عمهـا فوافـق والدهـا.

قالت أمي بانزعاج: وماذا عن كلمته التي أعطاها لكم؟!

الجدة: سحبها تفضيلا لابن أخيه.

أمي: وماذا كان رأي الفتاة؟

الجدة: كانت تريد مهدي ولكن رأيها لم يكن له أي احترام.

أمي: ليس باليد حيلة، لا تتضايقا.

الأم: ما يضايقني هو انزعاج مهدي وإصراره على الزواج في أسرع وقت ممكن.

تنهدت، ثم أكملت: فقام زوجي بخطبة ابنة أخيه، فرفض والداها.

تعجبت أمي مجددا، وسألت: لماذا؟

الجدة: خشيا عليها خاصة أمها من المسؤولية والإنجاب المبكر، فهي ما تزال في الثالثة عشر من عمرها.

الأم: لقد حاول عمه أن يقنعه بأن ينتظر عاما واحدا فقط، ولكن دون جدوى، فقام زوجي بخطبة ابنة صديق له، ورغم إعجاب والديها الشديد بمهدي إلا أنهما رفضا لنفس السبب.

قالت أمي: أمر سخيف أن يُرفض ثلاث مرات وهو ما زال في هذه السن.

الجدة: لقد أخذ الأمر بشكل شخصي، مع أن هذا ليس صحيحا.

بعد هذه الجملة، فوجئت بالجدة وبالأم تنظران إليَّ بإعجاب، فارتبكت ونظرتُ إلى أمي فوجدتها تنظر إليهما مبتسمة.

مضى هذا اليوم الجميل سريعا، وعدنا إلى منزلنا برفقة مهدي، ومن خلال كلامه مع أبي طوال الطريق، فهمت أنه قد فاتحه في أمر زواجه مني، إذ كان أبي يحاول إقناعه بأن ينتظر عاما وحينها سيتم الزواج.

بعد دخولنا إلى المنزل سمعت أمي تلومه بشدة لرفضه، ودخلا في نقاش عن الأمر، ولكنها لم تستطع أن تجعله يحيد عن رأيه، وعندما لم تصمت آوى أبي إلى فراشه هربا منها.

آويت إلى فراشي بدوري وأنا أشعر ببعض الضيق، فلقد راقتني حياة تلك الأسرة، كما أن مهدي هذا كان وسيما جدا لم تغب صورته عن خيالي طوال الوقت، ومع أنه كان قصيرا بدا الأصغر بين إخوته، إلا أن الأمر لم يعبه في نظري.

في اليوم التالي كانت أمي ما تزال غاضبة، وعندما عاد أبي من عمله سمعتها تقول له برجاء: ظلم أن تحرم الفتاة من فرصة كهذه، إنه هادئ، مستقيم، ميسور الحال، موثوق من قبلنا، لن نحتاج إلى أن نسأل عنه أو عن أسرته.

أبي: ما تزال صغيرة.

ـ وهذا هو حاله أيضا إنه في الثامنة عشر، كما أنك طلبت منه أن ينتظر عاما واحدا، هل ستصبح كبيرة في هذا العام؟! لقد أكدت لي أمه بأنها ستعاملها وسترعاها مثل ابنتها وستعلمها

كل شيء، وبأنها ستكون في شقة مستقلة في نفس منزل الأسرة.

ـ لو كان يريدها سيصبر.

بغيظ: لو أراد الصبر لانتظر ابنة عمه من باب أولى، هو يريد الزواج فحسب.

صمت أبي، فأكمَلَت برجاء: دعني أتصل بأمه وأبلغها بأمر موافقتنا.

ـ لا تتحدثي في هذا الموضوع مرة أخرى.

لعدة أيام أخذت أمي تحاول إقناع أبي بالتراجع عن رأيه، ولم تستسلم لرفضه المتكرر.

في كل مرة كنت أتوقع نجاح محاولتها، تصبح مشاعري خليطا من الخوف والسعادة البريئة والخجل والترقب، وأرى بابا سيفتح أمامي على أشياء لا أعرف عنها الكثير، وتخطر لي الأشياء الجميلة التي ستُشتَرى لي، والفستان الأبيض، وحفل الزفاف، والمنزل الخاص، والأهم من ذلك كله العيش في الريف، كما راقتني فكرة انتشال مهدي من الإحباط الذي هو فيه.

أرهقني هذا المد والجزر كثيرا، لدرجة أني كنت أبكي في بعض الليالي وأتساءل بقلق: ماذا لو لم يتقدم لي شاب مثله بعد ذلك؟ خاصة وأن أمي كانت قد بدأت تتحدث إلي بشكل

مباشر، فوجدت نفسي أوافقها الرأي بأني مؤهلة للزواج، وبأن هذا الشاب هو المناسب لي فعلا، وبأن أبي يُضيع من يدي فرصة ربما لن تتكرر.

كل هذه الأفكار أيضا كانت أمي تتحدث فيها مع نفسها بصوت عالٍ كما اعتادت أن تفعل مع معظم ما يمر بأسرتنا من أحداث.

بعد أسبوعين من بداية نصف العام الدراسي الثاني، خرج مهدي من حياتي دون رجعة، فلقد عرفت من حوار بين والِدَيْ، بأن أبي رشح له شخصا ليتزوج من ابنته.

استشاطت أمي غضبا؛ فالفتاة في مثل عمري، وعندما لامته بشدة تشاجرا، ثم انسحب من المكان، فأخَذَت تتحدث كما لو أنه ما زال يجلس أمامها وترد على نفسها نيابة عنه، وهو أمر اعتادت فعله، وكان فحوى كلامها ظلم أبي لي وعدم اهتمامه بي بل وعدم حبه؛ لأنه لا يحبها هي شخصيا.

ضايقني ما حدث كثيرا، لم تكن الفتاة المرشحة في مثل عمري فحسب بل وزميلة لي في نفس الفصل، ومع أنها لم تكن صديقتي إلا أني علمت بأن الخطبة قد تمت عندما رأيتها تعرض خاتم الخطوبة على الطالبات، آلمني الأمر كثيرًا وأخذت أنظر إليها بحقد وكأنها أخذت خطيبي مني.

في ذلك الوقت بالذات حدث شجار بين والِدَيْ، ومع أنه لم يكن شيئا جديدا واعتادا أن يفعلاه أمامنا، إلا أني وجدت نفسي هذه المرة لا أحتمله كما اعتدت، وبدأت أرى أن الزواج كان ليكون إنقاذا لي، خاصة وأن خوفا بدأ ينمو بداخلي من انفصال والداي، كان الزواج ولا شك ملاذا من الحياة بينهما عندئذ، ومن يدري، فربما أضطر أيضا أن أعيش مع زوجة أب أو زوج أم أو بينهما.

أخذت أفكر بنفس الطريقة عند كل مشكلة تحدث في المنزل، ليس هذا فحسب، بل أصبحت لا أطيق إزعاج أخواي، وزادت المرات التي كنت أسأل فيها نفسي: ترى، لو تزوجت مهدي، كيف كانت لتكون حياتي معه؟ كيف كان سيعاملني؟ كم طفلا كنا سننجب؟.

كنت أجد في تخيل الإجابات مهربا لي من أي ضغط أتعرض له.

بعد شهر تقريبا تمت دعوتنا لحضور زفافه، وقرر أبي أن نذهب، حزنت عندها، لم أكن أريد الذهاب أو ربما أردت؛ حتى أشاهده والعروس، على كل حال لم يسألني أحد والِدَي عما بي، كما اعتادا.

طوال الحفل، كنت واجمة أحدق فيه وفي عروسه وأتخيل نفسي مكانها، أعجبني الاهتمام بها، وأزعجتني سعادتها، لم أكن بالنسبة إليه سوى فتاة شغلت بضع نهار من حياته، ولم يعرف أن حياتها منذ تلك اللحظة تكاد تتمحور حوله هو فقط.

أحسست ببعض الغرور عندما بقيت أمي تؤكد لي ولأبي بأني أجمل من العروس بكثير، ولكن هذا لم يمنعني من البكاء في سريري تلك الليلة.

خلال الثلاث سنوات التي تلت زواج مهدي، تمت دعوتنا إلى حفل زفاف أخته وأخيه، وفي كل مرة كنت أرفض الذهاب؛ لم أكن أريد أن أراه أو أن أرى أحدا أو شيئا يذكرني بأمر أحاول نسيانه، ولكن والداي لبيا الدعوة إكراما لتلك الأسرة، غير آبهيْن برغبتي، ولم يقوما حتى بسؤالي عن السبب، ومع الوقت أصبحت حساسة جدا تجاه تعاملهما معي بشكل عام.

وما زاد الطين بلة، أن أمي في كل مناسبة منها كانت تعيد النقاش مع أبي حول قصتي مع مهدي، فيعودان للشجار، وتعود أمي لتكرر على مسمعي محاسن الثاني، ومساوئ الأول.

كما تم إعادة وصل العلاقة مع الصداقة القديمة فجأة، تم قطعها أيضا فجأة، لم أسأل أو أكترث للسبب.

إلى الآن لم أكف عن تذكر مهدي في الأيام السيئة، إذ أشعر ببعض السعادة وأنا أخرج من واقعي وأتخيل حياتي معه بكل تفاصيلها، تلك التي في كل مرة أضيف إليها أو أحذف منها كما أشاء.

ومع أنه في كل مرة ينتهي بي الأمر إلى مزيد من الاستياء، إلا أني لا أستطيع الكف عن ذلك وربما لا أريد، ولكن ما استطعت كفه في الأيام السيئة والجيدة على السواء هو سماع تلك الأغنية، والوقوف تحت المطر.

***

١٦ـ حجم عائلي

في ليلة جمعة صيفية، علت الزغاريد في منزلنا؛ فلقد تم عقد قران أختي، وبما أني أختها كنت المسؤولة عن خدمة المدعوين أثناء الحفل، وعن التنظيف قبله وبعده وعن غسيل عدد لا يحصى من الأكواب وأدوات المائدة، وكنت العين الساهرة خلاله على الأشياء القابلة للكسر أو الحساسة، فكان علي ملاحقة الأطفال هنا وهناك، وكان علي التبسم طوال الوقت رغم الضغط والتعب اللذين كنت أحس بهما.

آويت إلى فراشي بعد أذان الفجر، وأنا أعاني من صداع ومن ألم فظيع في ظهري وفي رجلي.

أيقظني ظهر اليوم التالي صوت أمي وأختي تخططان لحفل الزفاف، كانتا تكتبان قائمة بكل شيء علينا فعله وشراؤه.

لم أتحرك من فراشي وبدا لي أن طول قائمة المشتريات سيكون أطول من الشارع الذي أمام منزلنا، وفجأة انقطع

صوتهما وإذا بأختي تقف أمام باب غرفتنا، وتقول: عليكِ الاستعداد للذهاب معي إلى السوق.

أنا: تقصدين الأسواق؟

ـ نعم، من الواجب عليك مرافقتي.

برجاء: لا أستطيع فلدي وظيفة.

ـ أنت لا تمكثين فيها طوال اليوم هناك ساعات بعد عودتك.

ـ لم لا تصحبك أمي، فذوقها أجمل من ذوقي.

ـ ليس من المنطقي أن تذهب أمي المريضة معي وتبقين أنت الشابة القوية تجلسين في المنزل.

ـ أنا مرة وهي مرة، الحركة مفيدة لكل الأمراض.

ـ كُفي عن الاستظراف.

ـ ماذا عن صديقاتك، أليس الصديق وقت السوق؟

ـ كل واحدة منهن لديها أسرتها، هيا انهضي، فأنا وحسن لا نملك متسعا من الوقت أمامي أسبوعين فقط لأشتري ما أحتاج كما تعلمين.

ضغطت أختي كثيرا على: كما تعلمين هذه، ثم قالت: هيا علينا وضع خطة شرائية.

ـ علينا؟!

ـ نعم، ولا داعي لهذه اللهجة المزعجة من قِبَلِك، ستأتين معي رغما عنك، هيا انهضي فعلينا أن نراجع وننظم كل ما كتبته مع أمي وأرجو أن تُدلي بدلوك معنا.

ـ سقط دلوي من الشرفة، انتظري حتى أحضر واحدا جديدا.

أمسكت كل واحدة منا ورقة وقلما وأخذنا نراجع ونتذكر ونكتب، ونكتب ونتذكر، ثم قمنا بفرز المكتوب، فجعلنا كل شيء يأتي من مكان واحد معا، والأشياء الموجودة في أماكن قريبة من بعضها البعض معا، ونظمنا المشتريات حسب الأهمية، مع حساب الكلفة التقريبية لكل شيء منها، ثم اتجهنا جميعا إلى خزانة ملابس أختي، ففرزنا ما فيها؛ ووضعنا الصالح منها للحياة الجديدة على حدة، ثم أعلنت أختي أن غدا هو يوم بدء التنفيذ.

في اليوم التالي وفور عودتي من العمل، وجدت العروس جاهزة للانطلاق، فقلت لها برجاء: أريد أن أرتاح قليلا وأن أتناول طعام الغداء، أنا أتضور جوعا.

ـ سأشتري لك الطعام الذي تريدينه في السوق، وكذلك المثلجات التي تحبين.

ـ ليس من المروءة استغلالك نقطة ضعفي.

ـ هل أخذت إجازة من عملك؟

ـ فعلت يا مستبدة، انتظري قليلا حتى أتسلح بملابس مناسبة وبحذاء مريح.

برجاء: أختي الحبيبة، حاولي التسلح أيضا بمحبتك القديمة للسوق.

ـ قل للزمان ارجع يا زمان.

أرجعتني أختي بكلماتها إلى أيام الطفولة، حيث كنت أحب الذهاب إلى ذلك العالم الصغير، حيث الأضواء الساطعة والجاذبية في طريقة العرض وحيث كل حديث ومبهر ومثير، كثيرا ما كنت أتسمر أمام قطعة ما أتتبع أدق التفاصيل فيها.

ولكن الألم كان حليفنا في كل مرة نذهب فيها إلى ذلك العالم؛ فمحفظة أبي المتواضعة كانت هي من يقرر ما نحصل عليه، والذي كان نادرا الشيء الذي أحببناه، وعندما وصلنا إلى المراهقة أدركنا أنه لا فائدة من التجول فيه، فهو لا يسفر

إلا عـن خيبـة الأمـل وتمنـي مـا لـن نمتلكـه يومـا، فاكتفينـا بـأن تذهـب أمـي إليـه تحـضر لنـا مـا نحتاجه.

بعـد أن أنهينـا دراسـتنا وحصلنا عـلى عمل اسـتطعنا الانضمام إلى الطبقـة المتوسـطة، ولكـن مجـددا، لم يكـن يسـمح لي دخـلي بما أحـب مـن السـوق، ممـا أدّى بي إلى أن أنطـق بحكمـة أصبحـت مشـهورة في نطـاق أسرتي: أنـا أشـتري تبعا لذوق محفظتـي لا تبعا لذوقي.

تحسن دخلي مع الوقت ولكن علاقتي مع السوق لم تفعل.

عُـدت للواقـع عـلى صـوت أختـي تناديـني، فانطلقنـا وبدأنا الهجـوم، كنـا نذهـب للتسـوق صباحـا ومسـاءً، وغالبـا مـا كنـا نتنـاول أكثـر مـن وجبـة في السـوق أيضـا.

لم نـترك واحـدا في المدينـة إلا ذهبنـا إليـه، كانـت أختي تصر عـلى مقارنـة أسـعار البضائع في أكثـر من مكان؛ حتـى لا تتعرض للخـداع، وكانت تـصر أيضا عـلى التوفير قدر الإمـكان، ولم يكن من مانع لديها أن نمشي سـاعتين أو ثلاث حتى توفر مبلغا زهيدا، إذ كان هدفهـا هـو شراء كل مـا قامـت بتدوينه، وكل هـذا المدوَّن كان في نظرهـا مهـما جـدا من الصعب أن تسـتغني العـروس عنه.

كانـت قدمـاي تؤلمـاني كل يوم فأنقعهـما قبل النوم بـماء وملح؛ لأسـتطيع معـاودة الكـرة في اليـوم التـالي، كـم كنت أتمنـى أحيانا

أن أملأ حوض الحمام بالماء والملح وأن أضع نفسي فيه حتى أتخلص من التعب.

أعتقد أننا قطعنا عشرات إن لم يكن مئات الأميال، ولم يكن هناك مفر من الاستعانة بسلاح آخر بجانب الحذاء المريح، وهو مرهم للتسلُّخات.

ولتخفيف معاناتي، اقترحت على أختي ذات يوم: دعيني أجلس فور وصولنا لأي سوق، وقومي أنت بالانتشار من متجر إلى آخر.

أختي: لا أوافق.

ـ لماذا يا معذبتي؟

ـ علي أخذ رأيك فيما أشتري.

ـ صدقيني ذوقك أجمل من ذوقي بشهادة الجميع، هل تنكرين هذا؟

ـ لا أنكر، ولكن رأيان أفضل من رأي واحد، أنت تعرفين جيدا أنك تسعين خلف راحتك أيتها الخبيثة باقتراحك هذا.

ـ وماذا في هذا يا هذه؟

ـ لا تحاولي.

قلت بخبث على أمل أن تقتنع أختي: أليس على حسن مشاركتك في عملية التسوق هذه؛ فهو من سيرى ما سوف ترتدينه، كما أن ذلك سيظهر لك ما إذا كان يمتلك حس المشاركة الزوجية أم لا.

ـ كلام صائب.

بسعادة: ابدئي من الغد إذن.

ـ لقد نسيتِ أن حسن عليه إنهاء الكثير من الأمور في مدة الأسبوعين أيضا، اتبعيني.

لم أستسلم بعد فشل هاتين الفكرتين، بدأت بتطبيق غيرها، أخذت أشجع أختي أيما تشجيع على شراء الشيء حتى لو لم يكن مناسبا تماما، وقمت بإقناعها بأن بعض حاجياتها القديمة التي أنعمت بها علي مازالت بحالة جيدة، كما قمت بإقناع أمي بالذهاب معها أحيانا، فوجودها سيحمي الشابة الجذابة من أية مضايقة من أي بائع، خاصة وأن هذا الأمر حدث معنا أكثر من مرة.

لم يقف الأمر عند ذلك الحد، بل قمت بتشجيع أخي وأبي أيضا على أن يرافقاها، فالرجل يفهم الرجل.

ولم يبقى من الأفكار، سوى أن أطلب مساعدة الجمهور من الأقارب والجيران.

كنت أنتظر موعد الزفاف على أحر من الجمر أكثر من العروس؛ حتى أنتهي من المعاناة.

بدأنا بشراء أدوات الزينة ثم ملابس المناسبات والزيارات ومعها الأحذية والحقائب وكان يجب أن تتناسب ألوان الثلاث معا، وبعد ذلك اشترينا الملابس الخاصة بالمنزل والتي كانت مقسّمة إلى عدة أقسام بدورها، لقد اشترت أختي أشياء لم أكن أعرف أنها موجودة.

وجاء موعد شراء فستان الزفاف فحدث استنفار للأسرة، إذ خرجنا جميعا لاختياره، وبقينا نتنقل من متجر إلى آخر وبدت أختي غير راضية عن أي ثوب، حتى كدت أفقد صوابي.

وأخيرا وَجَدَتْ ما رضيت عنه، وكدت أطلق الزغاريد، خاصة وأن الحذاء مرافق للفستان، وإلا كان لزاما علينا البحث عن حذاء السندريلا، ولكننا أبقيناه في مكانه لضبط مقاساته.

انطلقنا في اليوم التالي لإحضار المُسْتهدف، وفور وصولنا جلست على أول كرسي وجدته، وقلت لأختي: اذهبي وحدك لإحضاره، وسأنتظرك هنا.

ـ كما تشائين.

ـ أريد علبة مثلجات من الحجم العائلي هذه المرة.

ـ سأفعل؛ فأنا ما زلت بحاجتك في رحلتي للبحث عن صالون تجميل لليلة العرس.

قبل أن أنطق بكلمة أو أبدي تعبيرا، وضعت أختي يدها على فمي وهمست لي: سأختار واحدا بسرعة، فلقد تعبت بدوري.

حصلت على مرادي وأخذت آكل بكل نهم وأنا أتنفس الصعداء؛ لقرب انتهاء معركة التسوق، ولأني تأكدت من أن العروس من لحم ودم، ولكن ما لبثت أن انزعجت عندما خطر لي أمر زواجي، إذ لا شك حينئذ أني سأقوم بهذه الرحلة المؤلمة مرة أخرى.

بدأت أتخيل الأمر وتفاعلت معه لدرجة أني كدت أبكي من التعب الذي سيحدث لي عندها، ورأيت أنه لا بأس من تأجيل الزواج عاما أو عامين؛ حتى أرتاح خصوصا قدماي .

عندما اقتربت من إنهاء نصف علبة المثلجات لاح لي في الأفق حل للمشكلة، سأعطي خطيبي قائمتي ومقاساتي وأخبره بأن عليه شراء كل شيء، وسوف أؤكد له أني لن أعترض على ذوقه ولن أطلب منه إرجاع شيء أو استبداله.

وفجأة خرجت من أفكاري على إثر صوت صفعة قوية.

نهضت والتفت إلى مصدر الصوت فوقعت عيناي على شاب آسيوي مع سيدة أنيقة يبدو عليها الثراء.

كان يحمل بعض الأكياس في يد، ويضع اليد الأخرى على خده فاستنتجت أنه المضروب.

توقف المتسوقون الذين كانوا بالقرب منهما، وما هي إلا لحظات حتى زاد عدد الذين أحاطوا بهما وأخذ الجميع ينظرون بفضول مثلي إليهما.

ألقى الشاب حمله على الأرض، وما هي إلا لحظات حتى أشار إليها بإصبعه أثناء قوله جملة جعلتني أنسى المثلجات والألم والسوق وخطيبي المنتظر وزواج أختي وفستانها بل وأختي نفسها، هذه الجملة جعلت الواقفين يبتسمون ثم يتحركون وهم يتهامسون بل وعلت ضحكات بعضهم.

قال لها بتأثر شديد: أنت الآن تضربيني، بينما تأتين إلى غرفتي في منتصف الليل وتطرقين الباب: دق، طق، دق، طق، دق، ط.....

***

١٧ـ تماس كهربائي

الجـروح والخـدوش وضربـات المطرقـة، لم تـردع الطفلـة ذات السـبع سـنوات عـن الفـك والتركيـب والتكسـير وتعديـل المسـامير.

كانـت تجمـع القطع الخشـبية مـن الشـارع، وتطلـب أيضا من والديهـا أن يفعـلا، وكانـت تتوقـف عند أي مـكان يتم فيه إنشـاء مبنـى جديـد؛ فتجمع القطـع الملقـاة، ولم يكن أمام والديها سـوى مسـاعدتها في حمـل مـا تعجـز عن حملـه، كـما لم تكن تسـمح برمي أيـة قطعـة أثاث يتـم الاسـتغناء عنها في المنـزل وتقـوم بجعل كل جزء فيهـا مسـتقلا بذاته.

كانـت منظمـة في عملهـا؛ تجعـل الأخشـاب الكبـيرة منهـا والصغـيرة والرقيقـة والضخمـة، في مجموعـات، وكان هـذا هـو الحـال مـع المسـامير أيضـا؛ محاولـة الوصـول إلى شيء يمكـن صناعتـه.

لم يكن يقف عائقا أمامها سوى تقطيع الخشب؛ إذ كان استعمال المنشار صعبا جدا بالنسبة إليها، فكانت تلجأ إلى والدها في تلك المَهمة وتلح عليه كثيرا ليؤديها؛ فهو دائما ما كان يتهرب ويؤجل الأمر إلى يوم إجازته بحجة تعبه، ولأن العملية لم تكن ممتعة له خاصة مع إشراف ومقاسات ابنته.

كم كانت (بشرى) تحب صوت المنشار ورائحة الخشب التي تنبعث أثناء العملية، حتى النشارة المتطايرة يمينا ويسارا لم تكن تزعجها، رغم أنها كثيرا ما كانت تدخل في عينها وتتسبب لها في نوبات من العطاس.

قالت لوالدها ذات مرة: اشتري لي منشارا كهربائيا، فترتاح.

ضحك والدها كثيرا، وقال: هل تعتقدين أني لو اشتريته، سأسمح لك باستعماله؟! إنه خَطِرْ.

ـ استعمله أنت إذن.

ـ لا حاجة لنا به، هل ترين لدينا ورشة؟!

ـ لم لا ؟ استقل من عملك ولنقم بإنشاء ورشة للنجارة، وأنا سأساعدك فور عودتي من المدرسة وطوال الأجازة الصيفية.

ـ خيالك واسع يا عزيزتي، هل تظنين الأمر يتوقف على تقطيع الأخشاب؟!

صندوق صغير، هو أول ما أنتجته بشرى، كانت سعيدة جدا به، ركضت إلى أمها وعرضته عليها، وكادت تجن من الفرح عندما وضع فيه والدها بعضا من أشيائه.

كانت فخورة به تلقي نظرة عليه عشرات المرات في اليوم، وكان حافزا لها لصناعة أشياء أخرى، ولكن الأمر كان يمشي ببطء في الأيام الدراسية؛ إذ كانت أمها تخفي ورشتها، عندما تجدها مشغولة بها.

كان هذا التصرف ينجح مع النجارة، ولكن ما الحل مع هواية الطفلة الأخرى، والتي كانت مراقبة أي صانع في عمله؟

كان من العادي شجارها مع والديها في الشارع وخاصة أمها؛ عندما ترفض مغادرة المكان الذي تجد فيه غنيمتها، وغالبا ما كانت تبكي وتصرخ وتتوسل حتى يمنحاها وقتا إضافيا للمشاهدة.

كانت أمها تشتعل غيظا مما تحبه ابنتها، وكانت تقول لوالدها دوما: هذه ليست أشياء تناسب الفتيات، كف عن مجاراتها.

لم يكن الأب يشاركها الرأي، وكان يخبرها بأن الفتيات أصبحن يمارسن الكثير من الأعمال اليدوية وبأن الأيام القادمة ستحمل أخبار اقتحامهن لمجالات اعتبرت منذ قرون حكرا على الرجال.

هـذا الـكلام كانـت تحـذر زوجهـا دائـما مـن أن يذكـره أمـام بـشرى، فـكان يسـتجيب لها، ولكـن ما لم يكـن يسـتجيب له، هو منعـه للفتـاة ممـا تحـب بالقـوة، وكان رده عـلى هـذا الطلـب دائما: الممنـوع مرغوب، اهدئـي واتركيهـا، وأنا متأكد مـن أن اهتماماتها سـتتغير مـع الأيام.

اكتشـفت الأم مـع الوقـت، أن مـا ترفضـه في ابنتهـا ينجـح في التفـاوض معهـا: إن حققـت تقديـر (جيد جـدا) في نصـف المواد الدراسـية، سأسـمح لـك بمراقبة أحد الـوِرَش مرة في الأسـبوع، أمـا إن حققـت تقديـر (ممتاز) في نصفهـا أيضا، سـأعطيك أدوات النجـارة يومين في الأسـبوع.

بشرى: وماذا لو حققتُ تقدير (ممتاز) في كل المواد؟

ـ سأغادر المنزل، ولتفعلي أنت ووالدك ما يحلو لكما.

كان أقـل الأمـور مضايقـة لـلأم، هـو وقوفهـا لمراقبة مـن يأتي إلى المنـزل؛ لإصـلاح شيء مـا؛ فالفتـاة تحـت عينيها عـلى الأقل.

كانـت تراها تراقـب السـباك والكهربائي غير شـاعرة بالوقت ولا بمـن حولهـا، ولـن تنسـى وقوفها لسـاعات مع العـمال الذين قامـوا بطلاء جـدران المنزل.

عندمـا بلغـت الثامنـة بـدأت تطلـب مـن والديهـا تـرك هـذه الأعـمال لهـا، وتغضـب وتحتـج عندمـا يرفضـان؛ فلم يكـن صغر

سنها وعدم خبرتها مقنعين لاعتراضهما من وجهة نظرها؛ كانت واثقة بأنها قد أصبحت على دراية لا يستهان بها في أي شيء قامت بمشاهدته، خاصة إذا كانت قد فعلت عدة مرات.

ولد هذا الأمر قلقا عند أمها من أن ترغب الفتاة بإثبات قدراتها لهما، فتقوم بفك أو تركيب شيء في المنزل دون إخبارهما، فلجأت إلى بث الخوف في داخلها قائلة: لو فككت أي جهاز كهربائي فستصعقين وتموتين فورا، ولو قمت بتصليح حوض الحمام أو المطبخ وفَشِلتِ، فسيغرق أثاثنا ويصبح غير صالح للاستعمال، عندها سأضطر لبيع مصوغاتي الذهبية لنشتري غيره، وهي ما تكفي لعمل مصنع أثاث صغير لك عندما تكبرين.

لحسن حظ الأم؛ كانت بشرى تقتنع بكلامها وترى بأن عليها الانتظار حتى تصبح في التاسعة أو العاشرة، عندها ستفعل ما تريده مهما حدث.

ذات يوم أحضر والدها سباكا جديدا لإتمام عمل ما، ومما لا شك فيه أنها كانت في المكان، فعرفت من حوارهما أنه كهربائي أيضا.

بعد أن أنهى عمله بإتقان، قال له والدها بارتياح: إن ممارستك للأمرين وجوارك لي، سيفيدني حقا في ظل هذا المنزل المتهالك؛ إذ قررت تغيير كل تمديدات الماء والكهرباء.

أخذ (يوسف) يتردد على منزل بشرى كثيرا، وأسفر هذا عن أن يصبح تقريبا صديقا لوالدها.

تعلقت به أو بمعنى أصح بمراقبته أثناء العمل، بل وأصبحت مساعدته التي تناوله أدواته وأي شيء آخر يحتاجه أثناء ذلك، وأصبح من الطبيعي أن يتركها والداها معه لوحدها.

بعد سنتين، حصلت بشرى على وسامين على صدرها، لم يسفرا عن أي تغيير في عقلها وقلبها وشخصيتها.

جاء يوسف إلى المنزل لعمل ما بعد غيابٍ قارب العام، وأثناء وجودها معه، أحست بانزعاج من نظراته لها، والتي بدا واضحا أنها ليست كسابق عهدها.

أحست بانقباض في قلبها وكادت تبكي بسبب هذا، وسألت نفسها: ما بال هذه النظرات؟!

لم تستطع تفسير شيء، لم تجد كلمة أو جملة تعبر بها عنه.

ارتبكت بشدة، ولم تجد أمامها إلا الانسحاب لأول مرة في حياتها، وعندما سألتها أمها باستغراب عما فعلت، بررت لها تصرفها بأن لديها واجبات مدرسية كثيرة، فقالت لها مداعبة: هي تضحية عظيمة جدا منك ولا شك.

لم تخبر والداها بالأمر؛ ربما لأنها لم تكن تستطيع وصفه، أو ربما خشيت منعها من المراقبة التي لم تكن تنوي إلغاءها، وقالت لنفسها: لابد أن هناك شيئا خاطئا.

خاب أملها، ففي كل مرة كان يأتي فيها إلى المنزل، يوجه إليها نفس النظرات، كما بدأ يتفحصها من قمة رأسها إلى قدميها.

كانت تتأمل نفسها، فربما تكون ملابسها أو شعرها أو حتى حذاؤها هم السبب، ولكنها لم تكن تجد شيئا فيها قد تغير، كانت ترى أنها ما زالت نفس الفتاة منذ لحظة بدء إدراكها للدنيا وحتى الآن.

أصبحت تكرهه وتوقفت تماما عن مراقبته، ولكن حضوره إلى المنزل لم يتوقف؛ إما بحكم العمل أو بحكم صداقته لوالدها.

كم أصبحت ثقيلة هي زياراته، وكم أصبحت تنزعج عندما يُطلب منها فتحُ الباب أو تقديم واجب الضيافة له، كانت تود أن تصرخ بأعلى صوتها: لا أريده أن يراني.

تطور الانزعاج إلى خوف ونفور شديدين منه ومن السباكة ومن الكهرباء، وبالتدريج قل اهتمامها بكل الأعمال اليدوية حتى النجارة التي كانت تعشقها.

آلمها ذلك كثيرا، وما كان أكثر إيلاما لها، هو أن والداها توقعا أن مرور السنوات فعل ما كانا يرجوانه من تغيرٍ في اهتماماتها.

كانت هناك صرخات في داخلها تقول: أود منكما ألا تستقبلاه مرة أخرى، ليس هذا فحسب بل عليكما طرده أو حتى ضربه.

أحست بأن لها ثأرا عنده.

مرت السنين، وعندما نضجت استطاعت أن تصف نظراته جيدا، لقد كانت قذرة، لقد كانت تخترقها.

تزوجت بشرى، ولم تعد تمارس أو تراقب أي عمل يدوي، ولكنها كانت في كل مرة ترى متجرا للأثاث، تتوقف وتنظر إليه طويلا، وربما دخلته وتفحصت كل ما فيه، بغض النظر عن نيتها في الشراء من عدمها، وكانت دائما تبتسم خلال ذلك.

ذات يوم كانت تتجول مع طفليها، فتوقفت أمام إحداها، ثم بدأت تضحك، فسألها ابنها ذو الخمس سنوات عن السبب فقالت: كان من الممكن أن أمتلك مثله، أو حتى مصنعا للأثاث.

ـ ولِمَ لمْ تفعلي، يا أمي؟!

ـ إنه السباك الكهربائي.

ـ لم أفهم.

ـ عندما تكبر سأشرح لك.

***

١٨ـ تدخلات أجنبية

«أتـوق لرؤيـة الكبـير؛ فهـو أكثـر شـهرة مـن أخيه إنه وسـيم يـا أمـي، وطويـل، وجـذاب، أخيرا حُـدِّدَ موعـد حفـل الزفاف»

هـذا مـا قلتـه لأمي بغايـة الحـماس وأنا أعطيهـا بطاقـة الدعوة الخاصـة بذلـك العُـرْس، فنظـرت إلي باسـتغراب وسـألتني: ألا يوجـد عنـد أختـه مواضيـع أخـرى للحديـث فيها؟!

ـ بـلى، ولكن مـع اقتراب موعـد الحدث، أصبح هـو الموضوع الأكثـر أهميـة في مجموعتنا، بـل وفي فصلنا، ولا أسـتبعد أنه كذلك في المدرسة الآن.

ـ وهل هذه المواصفات تكفي للشهرة ؟!

ـ لا، بـل بسـبب بحثـه الطويـل عـن فتـاة أحلامه، تلـك التي لم يجدهـا إلا بعـد جهـد، كان يريدهـا طويلـة مثلـه، وهـو محـق في ذلك .

ـ لقد عرفتُ أن أمه زارت نصف أُسَرِ المدينة؛ بحثا عمن تعجبه، وأن أخاه لم يحدد موعد زفافه منتظرا إياه، مع أنه كان يستطيع أن يتزوج منذ ما يزيد عن الستة أشهر.

ـ سعيدة أنه فعل؛ ستكون هذه هي أول مرة أحضر فيها حفل زفافٍ يجمع بين شقيقين.

ـ هذا إن وافق والدك على ذهابنا.

لم أكترث لهذه الجملة، ولم أصرف النظر عن المطالبة بثوب جديد؛ فأمي لم تكن تسمح لحفل زفاف أن يفوتها مهما كانت الظروف.

في الليلة الموعودة أجلستني أخته مع باقي صديقاتنا إلى طاولة قريبة من منصة العرائس؛ لننفذ ما اتفقنا عليه من تصفيق وتصفير ورقص وإحداث ضجة تحمس المدعوين.

بالطبع لم نكن لننفذ الاتفاق فحسب، بل ستحرص نظراتنا الثاقبة على تقييم ما إذا كان الطويل يستحق هذه الشهرة أم أنها كانت مجرد ضجة إعلامية من صديقتنا.

عند قرب وصول الأربعة، أخذت أخواتهم وأمهاتهم يتحركن في المكان بنشاط وتوتر ترجون المدعوين: عودوا للخلف، اجلسوا، أبعدو الأطفال عن مسار الزفة، ابتعدوا عن الكاميرا.

بدأنا بالتصفيق وكنا مستعدات للانطلاق لمساعدة صديقتنا مع أية إشارة منها، وبدأت النساء بالتحديق والمراقبة؛ لالتقاط أدق التفاصيل؛ ليحصلن على مادة للتسلية مع المشروبات والحلويات والمكسرات لهذه الليلة وللأيام القادمة حتى يحين موعد حفل زفاف آخر.

منذ اللحظة الأولى، شدنا المشهور، ليس بسبب خلفيتنا عنه أو صفاته فحسب؛ بل لأنه كان يتصرف بعفوية ومرح شديدين، على عكس أخيه الذي بدا هادئا ورصينا متبعا العادات والتقاليد في هذه المناسبات.

أخذ يضحك بصوت عالٍ ويتحدث بأريحية مع العروس، التي لم تكن على نفس نهجه، بل كانت على العكس، بدا عليها الارتباك والخجل فأخذت تسايره في لحظات وتصمت في أخرى، كما أخذ يداعب بعض المدعوين أيضا.

استمر على هذه الحال حتى بعد أن استقر الأربعة في مكانهم، وعندما رقص مع عروسه فعل بحماس شديد وبحركات كثيرة وفوضوية، ورفض الجلوس عند انتهاء الأغنية؛ حتى يستطيع أخوه وعروسه الرقص بدورهما، وأصر على تشغيل أغنية ثانية وطلب التشجيع، وعندما اشتعل المكان بالتصفيق طالب بثالثة، وأصبح واضحا محاولة أمه وأخته إقناعه بالجلوس ولكن هيهات، إذ لم يفعل إلا بعد الرابعة.

حسدت وصديقاتي عروسه؛ إذ اعتبرنا تصرفاته دليلا على فرحه بالارتباط بها، وعدنا لنتفق أن سعادته قد طفحت عندما خلع حذاءه.

بعد هذه الحركة تم فتح قاعة العَشَاء ودعوة الناس إليه، وعندما عدنا إلى مكاننا، وجدنا الأربعة قد غادروا مع أسرهم.

في طريق العودة إلى المنزل، قالت أمي لأبي: تمكث البنات السنين الطويلة مع أسرهن والمحيطين بهن، وكثيرا ما يكن غير مبالٍ بهن، ولكن عندما تأتي ليلة الزواج، تصبح فجأة شخصا مميزا عند الجميع، يتمنون منها نظرة.

قال أبي: وكذلك الفتيان.

أخذت أستمع بعناية لكل كلمة يقولها والداي عن الحفل، وقصصت عليهما كل ما شاهدته، وكم وددت أن أعرف أي شيء جديد عن الطويل والقصير أيضا.

فور استيقاظي في اليوم التالي، اتصلت بأختها وطلبت منها تزويدي بآخر الأخبار، ولكني ووجهت بتكتيم إعلامي منها، وبأنها سترجئ أي كلام في هذا الموضوع حتى انعقاد قمتنا في بداية الأسبوع الدراسي، الذي رأيته بعيدا جدا لأول مرة في حياتي الدراسية.

ولكن ما هي إلا ساعة حتى حدث شيء ربما أحصل منه على معلومات أفاجئ بها صاحبة الشأن، من يدري؟ لقد حضرت إحدى وكالات الأنباء في المنطقة لزيارتنا.

ذهبتُ إلى أمي، وقلت لها بسعادة: لقد جاءت أم نبيل.

بلهجة غير راضية؛ وقد فهمتْ ما أرمي إليه: قدمي لنا شيئا نشربه، ثم توجهي إلى غرفتك.

كانت مسألة غرفتي أمرا لا مجال لتنفيذه، فبعد أن قدَّمت عصيرا، جلست مقابلة لأم نبيل كقطة وديعة غير آبهة لنظرات أمي الآمرة بالمغادرة؛ فهي متأكدة من أن الضيفة ستتعدى كل سقف مسموح به للكلام، أمام فتاة في الخامسة عشر من عمرها.

أم نبيل: ما رأيك بما فعله الكبير ليلة البارحة؟

أمي: لقد توقعت أن يطير في أية لحظة.

ـ سأخبرك بكلام موثوق فيه، عن شيء غير عادي حدث له ولأخيه قبل الزفة.

أمي: ومن أين جاءتك هذه الثقة؟

ـ أخذت المعلومات من فم حماته التي صعدت الأمر وأحدثت ضجة شديدة.

نظرت لي أم نبيل، ثم غمزت لأمي بعينها، فعرفت أنهما قررتا الحديث بالتلميح، ثم قالت لأمي مع ابتسامة خبيثة: هناك شيء كان يجب أن يحدث بالأمس ولم يحدث، فتشاجرت أم العروس مع حماة ابنتها.

ـ ولماذا لم يفعل الشيء إياه؟!

ـ أحضر أصدقاء الشابين بعض المشروبات والأقراص الغير بريئة لهما؛ حتى ينتعشا طوال الليل، وليسجلا موقفا مشرفا في ليلة العمر، ولكن شقيقهما الأكبر انتبه للأمر، فمنعهما من تناولها.

ـ هو ذو خبرة في هذ المجال.

قهقهت الاثنتان، ثم قالت أم نبيل: لقد أخبرني زوجي بأنه حاول أن لا يُحدِث ضجة؛ خشية أن ينتبه الأصهار إلى الأمر.

ـ أنقذ أخويه من موقف سيء.

ـ لقد نجحت نصف جهوده فقط، عندما اقتنع الأصغر بالاعتماد على القدرات الذاتية.

قالت أمي: من الواضح أن الطول والسن لا علاقة لهما بالعقل.

شربت أم نبيل كأس العصير دفعة واحدة ثم قالت: لقد أعطت التدخلات الأجنبية عكس ما كان متوقعا منها تماما، إذ سقط نائما بكامل ملابس العرس، لدرجة أنه لم يخلع حذاءه، وما زال على حالته حتى لحظة انطلاقي من المنزل.

نهضت، ففعلتُ أنا وأمي مثلها، ثم قالت: سأغادر الآن وسأوافيك بأية مستجدات تصلني من مقر الحدث.

نهاية المجموعة الأولى

إلى اللقاء، في المجموعة القادمة.

***

الفهرس

المقدمـة.....٥
جمـع طوابـع.....٧
اسـتثمار.....١٥
ابـن الشـارع.....٢٣
الحـرب.....٣٧
سـألني.....٤٢
الضحـك ممنـوع.....٥٢
فـارس الأحـلام.....٦٠
عـود الكبريـت.....٦٨
البخيل، والأنـثى.....٧٤
إبريق مـن الشـاي.....٨٥
الزوجة الثانيـة.....٩٤
صفقـة مخـدرات.....١٠٤
في أسرتنـا جريمة قتـل.....١١٢
صاروخ أرض جـو.....١٢٣
تحـت المطـر.....١٣٣
حجم عائـلي.....١٤٣
تماس كهربـائي.....١٥٣
تدخـلات أجنبيـة.....١٦٢

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع